أحمد عزوز ومحمد خاين

العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي

بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسوي



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي

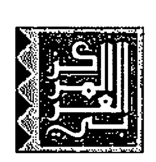
بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسوي

العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي

بين شرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسوي

أحمد عزوز

محمد خاين



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

الفهرســة أثناء النشــر إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

عزوز، أحمد

العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي : بين شــرعية المطلب ومخاوف التوظيف السياسوي / أحمد عزوز ومحمد خاين.

127 ص. ؛ 21 سم.

يشتمل على بيليوغرافية (ص. 109 - 117) وفهرس عام.

ISBN 978-9953-0-2905-4

1. اللغة العربية - المغرب. 2. اللغة الأمازيغية - المغرب. 3. اللغات - الجوانب الاجتماعية - المغرب. 4. اللغات - الجوانب السياسية - المغرب. أ. خاين، محمد. ب. العنوان.

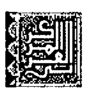
492.70147

العنوان بالإنكليزية

Linguistic Justice in Maghrebian Society:
A Legitimate Demand and Threat of Political Exploitation

by Ahmed Azzouz and Mohammed Khayen

الناشـر



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES

شارع رقم: 826 منطقة 66
المنطقة الدبلوماسية الدفنة، ص. ب: 10277 الدوحة قطر
هاتف: 00974 44199777 فاكس: 00974 44831651
جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، كانون الثاني/ يناير 2014

المحتويات

مقدّمة

قد يكون مفيدًا القول في هذا الاستهلال إنّ معالجة موضوع العدالة اللغوية ليس أمرًا سهلًا بسبب حداثة المصطلح، تداولًا واستعمالًا، أو من حيث المفهوم الذي لا يزال يكتنفه بعض اللبس والغموض.

لكن، على الرغم من حداثة المصطلح وجاذبيته، يدرك القارئ بداهة أنّه قابل للتدارس والتحديد، وإن لم نلقَ المعاجم اللغوية والاصطلاحية، عربية أكانت أم أجنبية، تتطرّق إليه أو تشير إليه، بحسب علمنا.

ربما يرى المتمعّن في موضوع العدالة - في بُعديه الاجتماعي والأخلاقي - أنه شغل منذ القِدم الحكماء والفلاسفة، فتناوله الإغريق ضمن فلسفة العدالة، وخصوصًا بعد أن تخطّى الإنسان المرحلة الفطرية الطبيعية ودخل الحالة المدنية (وقطع شوطًا كبيرًا فيها)، أو ما يُعرف بالحالة الاجتماعية بحسب نظريات العقد الاجتماعي وعلم الاجتماع السياسي[1]، غير أن المفكّرين لم يهتموا

(1) عبد القادر بوعرفة، «سؤال العدالة وحفريات الفهم،» في: عبد القادر بوعرفة، العدالة والإنسان: أسئلة الواقع ورهانات المستقبل (الجزائر: منشورات مخبر الأبعاد القيمية في الجزائر؛ دار آل رضوان، [2008])، ص 12.

بالعدالة اللغوية أو بوضعيتها المخصّصة أو المطبّقة على اللغات إلّا حديثًا.

يبدو أنّ الفلاسفة والسياسيين اشتغلوا بمسائل العدالة الثقافية، أو بأولوية الحقــوق الثقافية، قبل مصطلح العدالــة اللغوية، ولهذا يمكن القول إنّ مسألة اللغات كانت تعالج دائمًا في الخطاب العام الذي يتناول الثقافة[2].

من هنا نشــير إلى أنّ طرح موضوع العدالــة اللغوية جديد على المنظومــة الثقافية العربية، من المنظور الفلســفي والقانوني والفكري؛ فهو في مرحلته الجنينية، ولا نبالغ إذا أكّدنا أنّه لا يزال في طور التبلــور والتكوّن حتى فــي الثقافات الليبراليــة الغربية ذاتهــا. فالمصطلح لم يــرد عربيًا إلّا في كتابــات إعلامية مغربية غير متخصصة، تدور في كلّيتها حول تشــريح الواقع اللغوي في المغرب الأقصــى وإفرازاته السوســيوثقافية. ونعتقــد أنه دخل منظومة الثقافة العربية مــن خلال كتاب مترجــم حديثًا للباحث الفرنسي باتريك ســافيدان[*]. ونزعم أن دراستنا هي الأولى عربيًا في هذا المجال، لكــن لا يعني هذا أنه لم يســبقنا فيه أحد، لأن آخريــن تناولوا جزئياتــه بعناوين أخرى، مثل الحقــوق اللغوية،

---

(2) David Robichaud, «Une théorie normative de la diversité linguistique,» (Thèse de doctorat, Université de Montréal, département de philosophie, 2008), p. 2.

(*) العنوان الأصلي للكتاب *Le Multiculturalisme* صدر عن المنشورات الجامعية الفرنســية (Editions PUF) في عام 2009، نقله إلى العربية المصطفى حســوني، ونشرته دار توبقال في الدار البيضاء (المغرب) في عام 2011. فيه إشارة إلى أبحاث فيليب فان باريس عن العدالة اللغوية بإيجاز شديد، وخصوصًا صفحة 62.

وكذلك ضمـــن مباحث علـــم الاجتمـــاع اللغـــوي، كالتخطيط والسياسة اللغوية.

كما يمكننا القــول إن موضوع العدالة اللغويـــة لم يحقّق إلى الآن، ولم يعرف تراكمًــا معرفيًا نظريًا كبيرًا بالصـــورة التي عرفتها مجـــالات معرفية معاصرة أخرى في ظلّ العولمـــة وتطوّر التقنيات والمعلوماتية.

لهـــذا، علينا في هـــذا المقام بســـط مفاهيم العـــدل والعدالة واللغة لتدارســـها، وإظهار العلاقـــات القائمة بينها، وممارســـاتها في المجتمعات التعدّدية، كي يتســـنّى لنا تجـــاوز بعض التعريفات الكلاسيكية لتلك المصطلحات التي لا شكّ في أنّها أُوسعت بحثًا وأُشبعت تحليلًا عبر العصور المتعاقبة.

يفيد هذا ضمنًـــا أننا ســـنُبرز تطبيقات العدالة على المســـائل اللغوية، الأمر الذي يتطلّـــب بالضرورة التطرّق إلى مفاهيم مجاورة أو محايثـــة تتماهى معهـــا، كالحقـــوق اللغوية والسياســـة اللغوية والتخطيـــط اللغوي والمواطنـــة اللغوية والتســـامح اللغوي، وهي مصطلحات أصبحت تطفو على سطح الثقافة المعاصرة ومعارفها، فضلًا عن البحوث اللسانية الاجتماعية والقانونية والتعددية الثقافية والاقتصادية، لارتباطها بمجالات الحياة المختلفة.

إن فكرة البحث مســـتوحاة من الحراك السياسي والاجتماعي الذي عاشته، ولا تزال تعيشـــه، المجتمعات المغاربية بعد التحول الديمقراطي الـــذي مرّت به فـــي العقدين الأخيريـــن، وهو أمر لا

يخفى على أحد، وتجسّد بالتوجه إلى الاعتراف بالواقع اللغوي كما هو، وليس كما ينبغي أن يكون، فنجم عنه تراكم معرفي مميز أطّر المسألة اللغوية وصاحب تطوّراتها، وتمظهر في نصوص نظمت التعامل مع الحالة اللغوية، خصوصًا في الجزائر والمغرب، وكذا الخطاب الذي أنجزته النخب المغاربية في هذه المسألة، والذي تميّز بصبغة سجالية راوحت بين الاعتدال والتطرف، من جميع الجوانب، وبين الأيديولوجيا والعاطفة، وكذلك بين العمق والسطحية.

يمكن إجمال أسئلة الإشكالية في الآتي:

- ما مدى تجسيد مبدأ العدالة اللغوية في الواقع، وكيف نساوي بين لغات متباينة في قدرتها وأهليتها لاستيعاب جميع مستجدات الحياة في مختلف مناحيها؟

- أليس في المساواة بين هذه اللغات المؤهّلة سلفًا وتلك التي تحتاج إلى مَعيَرة ونظام كتابي راقٍ مجافاة لمبدأ العدل الذي يقوم على التفاوت والاستحقاق؟

- أليس من المفارقة، في زمن العولمة الذي تُكرِّس فيه هيمنة لغوية أحادية على العالم قاطبة، أن تنادي النخب المغاربية بالتعدّد المؤدّي إلى التمزّق بدلًا من الالتفاف حول لغة عربية قوية تمتلك من أسباب المنعة ما يؤهّلها لتحدي الهيمنة اللغوية المعولمة؟

- هل من طبيعة العدالة اللغوية أن نُلزِم الجماعات اللغوية غير الناطقة بالأمازيغية بتعلمها بفعل دسترتها ومساواتها بالعربية،

أم يجب الأخذ بمبدأ الجهوية في تطبيق هذا المبدأ الدستوري؟

- كيف تكون العدالة اللغوية في المنظومة التعليمية والإعلامية والقانونية وفي الإدارة وغيرها من هياكل الدولة، باعتبار أن الأمازيغية «أمازيغيات»؟ وما هو مصير أخواتها الأخريات؟

نظرًا إلى أن رصد الموضوع وتتبّعه من الناحية الفلسفية والمنطقية والقانونية لم يكونا من الموضوعات المصدرة من خارج أقاليمنا، أو فكرة جاهزة، يمكننا القول إنّهما من البحوث التي ظلّت ترزح تحت وطأة واقعنا كما ترزح أخرى. وعلى الرغم من ذلك، لم نجرؤ على تناولها، ما يجعلنا - في أكثر الأحيان - نقول إنّ الوعي بحياة مجتمعاتنا وسلوكياتنا وتفكيرنا ضئيل، ويصعب تناولها، لأنّ العلاقات داخل واقع مجتمعات الدولة العربية معقدة ومتشابكة، ولذا فالإجابة عن تلك الأسئلة كلّها ليس أمرًا يسيرًا. ولكننا سنسعى إلى الإجابة عنها في ضوء العناصر الآتية بعد هذه المقدّمة.

نشير قبل ذلك إلى أن المنهج الأكثر ملاءمة لمثل هذه المقاربات هو المنهج التحليلي الاستقصائي الذي يتتبّع الظاهرة، فيصفها ويفكّكها، مبيّنًا تمظهراتها وتداعياتها في مختلف النواحي السوسيوثقافية للمجتمع.

بناء على ما تقدّم، فإنّ غاية دراسة القضية اللغوية في المغرب العربي على الساحة الفكرية هي عرض الوضع اللغوي في الدولة الوطنية المستقلة، ومقاربة المسألة للتعرّف إلى جذورها، بهدف

تشخيص الأدواء بمنأى عن المزايدات السياسوية التي سادت على الساحة، أو الانتصار من منطلق أيديولوجي صرف لطرف على حساب آخر.

كما أنّ القصد من ذلك هو تقديم إجابات عن أسئلة كبرى نرى أنها لم تطرح، وإن طُرحت فبكيفية مبتسرة، وقُدّمت لها إجابات لم تمسّ القضية في مفاصلها.

أولًا: تعريف مصطلح العدالة اللغوية

ساد العرف بين الدارسين، واقتضت صرامة المنهج العلمي أنّه حين يضطلع الباحث بقضيّة ما، أو يسعى إلى إبراز ظاهرة، كيفما كانت طبيعتها، أن يحدّد أولًا المفاهيم التي تحيل إليها المصطلحات المفاتيح، لإيضاح الرؤية وتبديد ضبابية المسار، ومن ثمّ يتجلّى تصوّر المفهوم ومحتواه وعناصره.

يقول ابن منظور: «إن العدل هو ما قام في النفوس أنّه مستقيم»[3]، ويقابله في اللغة الفرنسية كلمة justice، وتعني التقدير المنصف والاعتراف واحترام الحقوق وما يستحقه كل فرد[4]، وهو ما يؤدّي إلى إعطاء المرء ما له وأخذ ما عليه، أي إنّ العدل «هو إعطاء كلّ ذي حق حقّه، أو وضع الأمور في مواضعها الحقّة»[5].

---

(3) محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، [د. ت.])، مادة (عدل).

(4) Paul Robert, *Le Petit Robert*, rédaction dirigée par Alain Rey et Josette Rey-Debove (Paris: [Le Robert], 1992), t. 1, p. 1057.

(5) جمال البنا، نظرية العدل في الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي (القاهرة: دار الفكر الإسلامي، [2011])، ص 83.

إذًا، العدل يعنـــي تمكين أصحــاب الحقوق مــن حقوقهم، لأنّ الحقــوق معرّضـــة للاعتــداءات والانتهــاكات والادّعاءات والخصومات، لكونها مرتبطة بحماية الذات الإنســانية ومقامة على المنافع. ولذلك ندرك أنّ إقامة العدل ليس أمرًا هيّنًا، لما يكتنفه من ملابسات الاجتماع، ولما لأحواله من انعكاسات عليها[6].

قد تفضي العدالة إلى ما نعته بول روبرت (P. Robert) في معجمه بعدالة السلْم[7] (la justice de paix)، وكل ما لم يكن مستقيمًا أو منتظمًا كان جورًا وظلمًا، ويقابله في اللغة الفرنســـية injustice. كما عرّفتها دائرة المعارف الفلســـفية بوصفها من المفردات التي تُفهم وتُعرف بدلالة ضدّهـــا، فضدّ العدالة الظلم، وهو «شـــعور بعدم المســـاواة نتيجة التمييـــز والمحاباة في المعاملة أيّـــا كان باعث هذا التمييز في المعاملة»[8]. فإذا كانت العدالة تعني في استعمالها المتداول والشائع بين الناس الوقوف على مسافة واحدة تجاه أفراد المجتمع، من دون تحيّز لطرف على حســـاب آخر، وفق قواعد ومبادئ مقررة سلفًا[9]، وهي «كناية عن تكافؤ الفرص في توزيـــع الدخل والثروة، ومقاومة

---

(6) محمد التومي، المجتمع الإنســـاني في القرآن الكريـــم، ط. 2 (تونس: الدار التونسية للنشر؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990)، ص 388.

(7) Robert, t. 1, p. 1058.

(8) حســـام الدين علـــي مجيد، إشـــكالية التعدديـــة الثقافية في الفكر السياســـي المعاصر: جدلية الاندماج والتنوع، سلســـلة أطروحات الدكتـــوراه؛ 85 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010)، ص 214.

(9) طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ وميغان موريس، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحـــات الثقافة والمجتمع، ترجمة ســـعيد الغانمي (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2010)، ص 214.

جميع أشـــكال التفاوت الطبقي، والاســـتغلال والفقـــر والتهميش، وتنمية علاقات التضامـــن والتكافل بين أبناء الوطـــن»[10]، فربما لا يستثني هذا الوصف العدالة اللغوية التي نحن في صدد تحليلها.

إن ما يهمّنا من مفاهيم العدالة في هذا المســـعى هي تلك التي تركّز على الحقوق الجماعية للجماعات اللغوية الثقافية من منطلق أن العدالة هي «نمط من العلاقة الاجتماعية أو السياسية يتمّ بموجبه معاملة كل شـــخص أو جماعة على أساس المساواة، وذلك استنادًا إلى منظومة القيم السائدة في المجتمع»[11].

بنـــاء على ذلـــك، وجـــب التمييز فـــي الحقـــوق اللغوية بين الحقوق الشـــخصية المتعلقة بالأفراد والحقوق الجماعية التي تعود إلى مجموعات إثنيـــة أو قومية تعيش في ظلّ دولـــة واحدة. ومن ثمّ ما زال المتخصصـــون يجدون في المجـــال القانوني صعوبات في جعل الحقوق اللغوية فرعًا مســـتقلًا بذاتـــه ضمن التخصصات القانونية والسياسية، لذلك، هم يقاربون هذه المادة بمفاهيم قانونية اعتادوها، وفـــي مقدمها حقـــوق الأقليات التي تتضمـــن الحقوق اللغوية أيضًا[12]، ما يدفعنا إلى القول إن العدالة اللغوية هي أدوات إشـــاعة العدل بين الأفراد، وهي الآلية التي يتحقـــق بها العدل بين

---

(10) المشـــروع النهضوي العربي: نداء المستقبل، ط. 2 (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011)، ص 103.

(11) مجيد، ص 214.

(12) عبد الهادي بوطالب، «حق اللغة (المخلوق الحيّ) في الوجود والبقاء والتطور والوحدة،» محاضرة، ص 3، على الرابـــط: <http://www.aljabriabed.net/n24_09hanun1.htm>.

اللغات التي تُؤسس المشهد العام لدولة ما، عبر تبنّي سياسة لغوية تعددية تعترف بحق كل جماعة لغوية في التعاطي بلغتها، إن في الحيز الجغرافي الذي تشغله داخل الدولة - الأمة المعاصرة، أو على امتداد وجود الناطقين بها، على أساس من المواطنة اللغوية التي تعني «التوزيع الثقافي واللغوي لأفراد المجتمع على قاعدة الاعتراف بالمساواة في الحقوق والواجبات، وعلى أساس تعاقد ثقافي - لغوي بين الدولة والمواطن»[13].

لا بد من الإشارة إلى أنّ زمن الدولة القومية المتجانسة التي لم تكن تسمح بوجود غير عرق واحد ولغة واحدة وفكر واحد، وتعمل على تحقيق الاندماج القسري، تراجع وأصبح محلّ جدال ونقاش؛ فقاعدة دولة مركزية، فرنسا مثلاً، ذات التصوّر المتميز للمواطنة الجمهورية، ولغة رسمية واحدة، وجنس واحد لا تني المنظّمات الأوروبية تصفها بأنّها مفارقة تاريخية، في حين قُدّمت الدولة التعدّدية المتنوعة اللغات والثقافات بأنّها تعبير صادق عن المنظور الحديث للدولة[14].

ازداد النقاش والجدال الفكريان منذ تسعينيات القرن الماضي

---

(13) انظر: مبارك حنون، «الوضع اللغوي بالمغرب في أفق العولمة: نحو إيكولوجيا لغوية،» مجلة فكر ونقد (المغرب)، العدد 24 (كانون الأول/ ديسمبر 1999)، متوافر على الرابط: <http://www.aljabriabed.net/n24_09hanun1.htm>.

(14) ويل كيمليكا، أوديسا التعدّدية الثقافية - سبر السياسات الدولية الجديدة في التنوّع، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة؛ 378 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2011)، ج 2، ص 20.

العنوان الأصلي: *Multicultural Odysseys: Navigating the New International Politics of Diversity.*

في شأن إعادة تعميم مشروع بناء الدولة-الأمّة، والكيفية التي يجب أن يُتعامَل بموجبها مع التعدّد بأنواعه الثقافي واللغوي والإثني، من منطلق أنّ المساواة والحرية على المستوى الفردي لم تعودا كافيتين لإرضاء مطالب الأقليات؛ حيث أصبح الوعي بالتباين الثقافي يتمتع بقوّة لا يمكن إنكارها، بسبب السياسات المنتهَجة في عملية بناء الأمّة خصوصًا، ومشروع بناء الدولة - الأمّة عمومًا.

لم يخرج الجدال في أبعاده عن العدالة وكيفية تحقيقها عمليًا، أي إنّ دعاة التعدّدية الثقافية يحاولون توسيع نطاق العدالة ليشمل المستوى الجماعي، إضافة إلى مستواها الفردي، بخلاف أنصار الليبرالية الفردية الذين يفضّلون حصرها في النطاق الفردي[15]. وربما يعود ذلك بالدرجة الأولى إلى التحوّلات الجذرية الواضحة التي تراكمت في الميادين المختلفة والتقلبات المتسارعة في العالم، نتيجة تطوّر الاتصالات واجتهاد الجمعيات المدنية والمؤسسات الفكرية في العالمين الغربي والعربي.

يوحي هذا بتغيّرات بنيوية حدثت، وستحدث في عالم الفكر، على مستوى العقول والذهنيات، وستعيد هيكلة مستقبل الثقافة العالمية التي لا يمكن الآن تحديد مداها ومراميها وأبعادها بدقّة: «فلقد بدأت تختفي النماذج القديمة للدولة القومية ذات النسيج المتماثل والمنسجم، كما ازدادت المنازعات حولها وراحت تحلّ محلّها نماذج من التعدّدية الثقافية للدولة والمواطنة»[16].

---

(15) مجيد، ص 157.

(16) كيمليكا، ج 1 ، ص 17.

ومن ثمّ أصبحنا نشـــهد انتقالًا من نموذج الدولة الإثنية إلى الدولة المدنية[17]، مع ما يترتب عليه من تبعات تكون بمنزلة عبء إضافي، على الدولة أن تراعيه وتتحمّله.

بحســـب علمنا، فإنّ من أوائل من تعـــرّض لمصطلح العدالة اللغوية، بل أشـــاعه، في حقل الدراســـات الفلســـفية السياسية هو فيليب فان باريـــس[*] (P. van Parijs)، لينطلق بعد ذلك إلى قطاعات معرفية مجاورة، وكان يرى أنها تقوم على دعائم هي:

- الاعتراف بالتنوع اللغـــوي داخل حدود الدولـــة، والتأكيد الرمزي للمساواة بين اللغات.

- تبنّي لغة مشتركة تحقق التواصل بين جميع مواطني الدولة، أطلق عليها باريس «اللغة الوسيطة» (Linguæ franca).

- امتلاك مواطني الدولة المقيمين في أقاليم الأقليات الشجاعة

---

(17) Mathias Koenig, «La Gouvernance démocratique dans les sociétés multiculturelles,» Unesco (2003), [en ligne], <http://www.unesco.org/most>.

(*) فيليب فان باريس: فيلســـوف واقتصادي بلجيكي، مـــن مواليد 23 أيار/ مايو 1951، خريج جامعة أكســـفورد، والجامعة الكاثوليكية في لوفان (بلجيكا)، يشغل حاليًا كرسي الفلسفة في الجامعة الكاثوليكية في لوفان. يجيد الفرنسية والإنكليزية والهولندية والألمانية والإسبانية والإيطالية والبرتغالية، وهو ناشـــط سياسي من أشد المدافعين عن حق الأجانب في الانتخابات المحلية، له عشـــرات البحوث، نذكـــر منها كتابه هذا الذي تناول فيه رؤيته للعدالة اللغوية وكيفية تحقيقها: *Linguistic Justice for Europe and for the World* (Oxford: Oxford University Press, 2011),

إضافة إلى مجموعة كبيرة من المقالات والمحاضـــرات تخدم كلها الفكرة ذاتها، وبمختلف اللغات التي يكتب بها. وكان قد بدأ يهتم بمصطلح العدالة اللغوية حينما أخذ سنة سبتية أمضاها في يال وأكسفورد بين عامي 1997 و1998.

والتواضع لتعلم اللغات المحلية المرسّمة وفق مبدأ الجهوية في تلك الأقاليم.

- تبنّي مبدأ الجهوية اللسانية (Principe de la territorialité linguistique) الذي يقوم أساسًا على الاعتراف بحق كل جماعة لغوية في استخدام لسانها داخل حدود إقليمها[18].

حاول فان باريس في مؤلّفه *Linguistic Justice for Europe and for the World* الذي أعدّه لهذا الغرض «تبيان صور انعدام العدالة ذات الصلة بالتنوع اللغوي، ومن أهمها هيمنة اللغة الإنكليزية في أوروبا، وفي العالم، كما قدّم مجموعة من المبادئ رأى أنها قابلة للتطبيق، وكفيلة بتحقيقها. كما ناقش المسألة من منطلق أن العدالة اللغوية المقصودة هي عدالة تشاركية، وتوزيعية، يراد بها حفظ الكرامة بالمساواة بين اللغات[19]. وهو ما يؤدي إلى:

• إدارة الشأن اللغوي المتنوع في المجتمع بسلاسة وانسيابية وبحكمة وموضوعية حتّى لا تثار حساسية بين المركز والهامش.

• الاعتراف بالآخر بما يمثله من مغايرة واختلاف، من أجل اجتثاث بؤر التوتر من جذورها. وما ينبغي الإشارة إليه هو أن هذا الاعتراف بالآخر واعتماد حقوقه يجب عدم التعامل معهما بأنهما:

---

(18) انظر: Philippe Van Parijs, «La Justice linguistique en Europe et dans le monde,» *L'Annuaire du Collège de France*, 109ème année, [en ligne], <http://annuaire-cdf.revues.org/423>.

(19) Philippe van Parijs, «Plaidoyer pour une territorialité linguistique,» traduction de l'anglais par Annette Gérard; revue et complétée par l'auteur,» *Politique*, no. 73 (janvier- février 2012), p. 79.

«تسويات خاصة أو موقتة لمشــاكل معيّنة»[20]، بل لا بد من اعتباره «التزامات وحقوقًا أساسية»[21] مطلوبة لتحقيق العدالة في جوهرها، لا البحث عن دواعي الاستقرار فحسب.

• شــيوع الاســتقرار في المجتمع، الأمر الذي ينعكس إيجابًا على التنمية الشاملة للدولة - الأمّة.

• الثراء والتنوع الإيجابيان بتلاقح العبقريات والتجارب الإثنية المختلفة التي تتكوّن منها الدولة - الأمّة.

• قيام الدولة على مبدأ المواطنة الدســتورية التي يتســاوى فيها الجميع مهما تكــن إثنياتهم ولغاتهم وأديانهــم وانتماءاتهم السياســية، بحيث يكون المبــدأ الفاصل في ذلــك هو الحق في تكافؤ الفرص، والاستحقاق بحسب القدرات التي يتميز فيها كل فرد داخل المنظومة المجتمعية، ومــا يقدّمه من إضافة نوعية إلى مجتمعه.

تكملة لهذا البســط المفاهيمــي، وجب طرح مفهــوم اللغة بمنأى عــن التعريفات التــي ركّزت علــى أنّها وســيلة الاتصال المثلــى التي تعبّر عن الهويــة الخاصة؛ باعتبارها «ليســت التعبير عن الوجدان، الذي يدخل فــي مفهوم المثالية، وإنّما هي الوجدان نفســه»[22]. فعلى الرغم من أهمّية هذا الطرح، تبقى أوسع من كلّ

---

(20) مجيد، ص 21.

(21) مجيد، ص 21 .

(22) عن كارل ماركس، «الأيديولوجيا المثالية» في: إحسان سركيس، «الدولة- الأمّة» مجلة دراسات عربية، العدد 7 (أيار/ مايو 1979)، ص 60.

حدّ حاول تأطيرها، فهـي «بيت الكائن البشـري، فيها ينظم أمور معاشـه، ويخزّن رموزه وثرواته، إنها تؤويه وتحفظ أسراره، ومنها يرى العالم ويدركه»[23].

مفاد ذلـك أنّ اللغة تحمل فـي معجمها ونظامهـا الصوتي ونحوها تاريخ المجموعة التي تنطق بهـا وعلاقاتها بالمجموعات الأخرى، وطبيعة هذه العلاقـات ومكانة الناطقين بها بين التنقلات الجغرافية والنشاط الحيوي. فهذا كله يترك آثارًا وبصمات في اللغة التي هي المصـدر الأول لامتلاك المعرفة والتحكم بها اسـتثمارًا وتحويلًا، وملمح مهمّ في تحديد هوية الفرد.

ثانيًا: المرجعية الفلسفية للعدالة اللغوية

لو حاولنـا تحديد الإطـار الناظم لفكـرة العدالـة اللغوية، لوجدناه يسـترفد مرجعيته من حقـول معرفية عديـدة، تعود في مجملها إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية. كما سنلحظ أن اهتمام السياسيين بمسألة العدالة والحقوق اللغوية للجماعات التي تعيش في فضاء الدولة الواحدة الحديثة العهد يعود إلى تسـعينيات القرن الماضي والعقـد الأول من الألفية الثالثة. فهذه المسـألة لم تحظَ بهذه العنايـة إلاّ بعد نزاعات كثيرة ذات منشـأ لغـوي في مناطق عديدة فـي العالم، إذ اقتـرن البحث عن التجانـس اللغوي عادة بإنشـاء الدول القومية بعد زوال الظاهرة الاسـتعمارية، واشتدّت حدّته أكثر منذ فترة ليسـت بعيدة، خصوصًا في دول البلقان، بعد

(23) حنون، «الوضع اللغوي بالمغرب في أفق العولمة».

انهيار الاتحاد السوفياتي[24]، وما استتبع ذلك من إبادة عرقية في أكثر من منطقة في العالم، حصلت بسبب انعدام التسامح اللغوي، فضلًا عن الضغط الذي تمارسه اللغات المحلية التي يتكلّم بها عشرات الملايين، وما تمارسه اللغات الأوروبية التي ينقلها التعليم وعوامل التبادل الاقتصادي، وكذلك «السياسات التربوية التي تنتهجها الحكومات لصالح اللغات الاستعمارية»[25]، وسكوت أو قبول الشعوب بذلك، إضافة إلى انعدام قانون العدالة اللغوية الذي يضع حدًّا لتلك الممارسات. ومن ثم بدأ هذا الاهتمام يتبلور في نظرية سياسية تعنى بتدبير الشأن اللغوي، وفق رؤية ديمقراطية تعددية تعترف بالتنوّع، وتصون وحدة المجتمع والدولة معًا.

إضافة إلى ما سبق، فإنّ الطروحات التي قُدّمت في شأن مسألة التنوع اللغوي، والمقترحات التي حاولت حل مشكلاته من أجل تحقيق الانسجام والتناغم داخل إطار الدولة - الأمّة، تندرج ضمن نسق أعم وأشمل، أُطلق عليه مصطلح تيار ما بعد الحداثة[26]، وهو يهدف إلى تجاوز ما اصطُلح عليه وضعية الأكثرية - الأقلية التي تمخّضت عنها عمليات بناء الدولة الحديثة، والانتقال إلى وضعية المواطنة المتعدّدة اللغات والثقافات، وهي المواطنة التي أُسّس فيها العدالة على دعامتين: الحرية والمساواة في الحقوق

(24) انظر: «الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الحضارات،» تقرير اليونسكو العالمي، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، 2009، متوافر على الرابط: <http://www.un.org/ar/events/culturaldiversityday/pdf/unescoreport.pdf>.

(25) بوطالب، ص 6.

(26) مجيد، ص 19.

اللغوية الثقافية، الفردية منها والجماعية لجميع مواطني الدولة[27]. وسنتناولها بعد تقصّي جذور العدالة اللغوية، واستكناه التربة الحاضنة لفكرتها، والداعمة لحماية التنوع اللغوي، فهي سياسية في المقام الأول وفلسفية في المقام الثاني، لأنّها ترى أنّ قوّة المجتمع في تنوّعه وفسيفسائيته.

لكن مثل هذا التصوّر يبقى في الأغلب نظريًا، لأنّ المنافسة بين الكيانات اللغوية في المجتمعات تبقى واقعًا لا يمكن إخفاؤه أو إنكاره.

هنا تتحوّل السياسة اللغوية إلى فلسفة يتمّ إعمالها لتحقيق التوازن بين الجماعات اللغوية المتنازعة؛ إذ يمكن لهذه الفسيفساء اللغوية والقومية، في ظل غياب العدالة الاجتماعية (اللغوية) والوعي الحضاري الوحدوي، أن تكون عاملًا من عوامل تهديد الأمن القومي وزعزعة الاستقرار[28].

عرف العالم بدءًا من منتصف القرن العشرين تناميًا لنضالات الشعوب والأمم المقهورة التي كانت تبتغي التخلص من رواسب الاستعمار وتبعاته، فنجم عن ذلك بالضرورة تبنّي سياسات وطنية تتوخى التخلّص من التخلّف في مختلف الميادين، وتحقيق العدالة الاجتماعية المغيّبة في الحقبة الاستعمارية، ومنها إحلال

---

(27) مجيد، ص 22.

(28) المصطفى تاج الدين، في: التسامح، العدد 9 (شتاء 2005)، ص 154. وهي مجلة فصلية إسلامية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، مسقط، سلطنة عمان.

اللغة الوطنية محلّ لغة المستعمر في تسيير شؤون الدولة. وأدّى تبنّي لغة بعينها إلى مطالبة باقي المجموعات التي يتكوّن منها كيان الدولة المستقلة بأن يكون للغاتها حضور رسمي، بمنأى عن النزعة الفولكلورية، والاحتفاء بها بوصفها مجرّد موروث تقام له المهرجانات، ما يعني أنّ التعددية اللغوية تصبح «طريقة للحياة والتفكير، وليس مجرّد سبيل للاحتفاء بالتنوع الثقافي»[29].

مؤدّى ذلك أنّ هذا التغيير كان «نتيجة العمليات السياسية المحلية التي تنشأ داخليًا. وبعد فترة من المنازعات والمفاوضات الداخلية، واستجابة لتحرّك مكثف من بعض الأقليات، انتهى عدد من البلدان إلى أن النماذج القديمة لم تعد تتناسب مع ظروفها التاريخية والسكانية الخاصة»[30]. الأمر الذي يعني أنّ انحياز الدول المستقلّة بسياستها اللغوية للغة ما على حساب اللغات الأخرى له دواعٍ كثيرة، منها:

- أنّ النخب الحاكمة رأت في اللغة المتبنّاة لغة عالمة.

- أنها لغة أغلبية سكان الدولة، وثبت تاريخيًا تجاوب الأقلية معها وتواصلها بها.

- أنّها ضامنة وحدة الأمّة وتماسك بناء الدولة.

أدّى ذلك إلى تبلوّر الوعي بضرورة العمل على تبنّي الدولة سياسة لغوية عادلة، ما يعني بداهة أنّ للعدالة اللغوية بُعدًا وطنيًا،

(29) مجيد، ص 153.
(30) كيمليكا، ج 1، ص 17-18.

وأنّها تخص إقليمًا أو مجموعة أقاليم معينـــة، وتضطلع بها الدولة لصون المجتمع من أي انحراف.

يمكننـــا أن نضيف إلـــى ما ســـبق، توالي صـــدور النصوص والمواثيق الدولية تباعًا من الهيئات الأممية، خصوصًا من منظمتَي الأمم المتحـــدة واليونســـكو[*] التي عملت على تشـــجيع تكريس سياســـات لغوية تعددية عادلـــة، تُحمى بموجبها لغات الشـــعوب الأصلية، والأقليات الإثنية، والمهاجرين.

يحيلنا هذا ضمنًا إلى اكتســـاء هذا التحـــوّل أيضًا طابعًا دوليًّا، لأن تلك الهيئات ضغطت على الدول لتبنّي سياسة تعددية ثقافية/ لغوية: «وســـوف تجد الحكومات - التي هي على اســـتعداد للنظر في مســـألة تبنّي المواطنة المتعددة الثقافات - «طابورًا» طويلًا من المنظمات على اســـتعداد لتقديم العون والمهارات الفنية والخبرة والدعم المالي»[31].

بـــل إنّ نصوصًا كثيـــرة ربطت بين التنـــوّع اللغـــوي والتنوّع

(*) منها اتفاقيـــة مكافحة التمييز في مجـــال التعليـــم (1960)؛ الميثاق الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية (1966)؛ إعلان حقوق المنتمين إلى أقليات قومية أو إثنية وإلى أقليات دينية ولغوية (1992)؛ إعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي وخطة عملـــه (2001)؛ اتفاقية صون التـــراث غير المـــادي (2003)؛ التوصية الخاصة بتعزيز التعدد اللغوي واســـتخدامه وتعميم الانتفاع بالمجال السيبيرني (2003)؛ اتفاقية حماية تنوع التعبير الثقافي (2005) وتعزيزه؛ إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية (2007).

(31) كيمليكا، ج 1، ص 18.

البيئـي[32]، وعدّتهما في مرتبـة واحدة من الأهميـة؛ إذ يتّضح أنّ الضياع المتوقّع لكثير من اللغات سيضرّ بجميع أنواع التنوع، وليس التنوع الثقافي فحسب، من حيث هو تعدّد وثراء لوجهات النظر عن العالم والنظم الفلسفية، كما سيضر بالتنوّع البيئي والإيكولوجي، إذ تبين الأبحاث بصورة متزايدة وجود صلـة بين تأكّل التنوع اللغوي وتأكّل المعرفة بالتنوع البيولوجي.

كما تجد هذه الأفكار صدى لها ضمن إطار فلسفي عام عرف بـ «العدالة التوزيعيـة» (La Justice distributive) التي أسسـت على مقولة لأرسـطو ترى أنّ الشرّ أنتجه سـوء التوزيع، وبالتالي يؤدي التوزيع دورًا أساسيًا في استقرار المجتمعات المتقدّمة، وهو يشمل جميع المجالات التي تحسّـن حياة الإنسـان وكرامته، وخصوصًا التوزيع في المجالين السياسي والاجتماعي[33].

أمّا العدالة التوزيعية فهي قوام العدالة الاجتماعية التي أضحى يُنظر إلى العدالة بموجبها أنها نظرية سياسـية لا فلسفة أخلاقية[34]،

---

(32) نشـأ في هذا المجـال مفهوم العدالـة البيئية كـ«مصطلح قائـم بذاته، في الولايات المتّحدة، فـي مطلع الثمانينيات، حين اسـتطاعت جمعيـات المحافظة على البيئة من اكتشـاف أخطـار المصافـي، والمعامل بالخصـوص، على صحّة الإنسـان وحياته، وارتبطـت المخاطر خاصة بالمناطق الفقيرة التي تسـكنها الأغلبية من السـود والملونين الأميركيين... وعلى هـذا يُقصد بالعدالة البيئية اتّخـاذ جملة من الإجراءات القانونية للحيلولة دون نشـوء بؤر للتلوث البيئي في المناطق الفقيرة أو المسـحوقة في المجتمع...»، انظر: بوعرفة، ص 41.

(33) بوعرفة، ص 36.

(34) جـون رولز، العدالة كإنصاف: إعادة صياغة، ترجمة حيدر حاج اسـماعيل (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009)، ص 81.

وذلك بفضل البصمــات التي أضافهــا جون رولــز[*] (J. Rawls)، والإثراء الذي قدمه ويل كيمليكا[**] (W. Kymlicka).

خلاصة هذا الطرح أن البشر خُلقوا غير متساوين في أوضاعهم الاجتماعية ومواهبهــم، ومن ثم من غير المنصــف توزيع الأعباء والمنافع بقدر متســاوٍ، ما يعني أن القاعدة التي يجب أن يُؤسّــس عليها التوزيع لتلــك المنافع والأعباء هي: الجــدارة، أو الحاجة، أو المصلحة، وبذلك جعلها من المعاييــر التي ينال بموجبها الفرد نصيبه في المحصلات النهائية[35].

اكتســى الحوار في شــأن العدالة الاجتماعية وواجبات إعادة توزيع الثروة أهمّية في جوانبه الفلســفية والسياســية والاقتصادية والاجتماعية، وهــو أمر طبيعي في تقويم الإمكانات التي تؤسّــس للتدخل الذي تتقدّم به التوزيعية في سبيل مساعدة الأقليات اللغوية. كما أن فكــرة العدالة تنطلق لدى رولز من التراث الفلســفي الذي خلّفه جون لوك وجان جاك روســو وإيمانويل كانط، بالدعوة إلى

(*) جون رولز (1921-2002): فيلســوف سياســي أميركي، من أكثر فلاسفة القرن العشرين دراســة ونقدًا، تمحورت اهتماماته الفلســفية حول موضوعي الأخلاق والعدالــة ومدى صلتهما بالحرية الفرديــة والتكافل الاجتماعي. من أشــهر أعماله التي لاقت رواجًا كتابــه *A Theory of Justice* (نظرية العدالة) الصادر فــي عام 1971، وكذا الكتاب الذي حمــل مراجعاتــه *Justice as Fairness: A Re-Statement* (العدالة كإنصاف: إعادة صياغة) الصادر في عام 2001.

(**) ويل كيمليكا: فيلســوف كندي، اكتسب شهرته من اشــتغاله على التعددية الثقافية. يشغل حاليًا كرسي الفلسفة السياسية في جامعة كنغستون، كندا. من أشهر أعماله *Multicultural Odysseys: Navigating the New International Politics of Diversity* (أوديسا التعدّدية الثقافية - سبر السياسات الدولية الجديدة في التنوّع).

(35) مجيد، ص 216.

إحيائه بعدما تلاشى وتوقّف العمل به منذ عام 1800، وهو لا يركّز على فكرة تبرير وجود الدولة، وإنّمـــا يعمل على تبرير فكرة توزيع «المنافع» و«الأعباء».

يمكن تجميع أفكار رولز في شـــأن العدالة التوزيعية بحســـب ما جاءت فـــي آخـــر مؤلفاتـــه *Justice as Fairness: A Re-Statement* (العدالة كإنصاف: إعادة صياغة) الذي أصدره قبل ثلاثة أعوام من وفاته، ويعدّ بمنزلة مراجعة لكتابه الصادر في عام 1971 *A Theory of Justice* (نظريـــة العدالة)، لأنه صحح فيه أفـــكاره وأعاد إثراءها، كما ردّ فيه علـــى منتقديه، فهو يرى أنّ الأرضية الصالحة لتجســـيد العدالة هي المجتمع الديمقراطـــي[36] الذي يعيش الواقعة التعددية المعقولة[37]، ومن مواصفاته أنه مجتمع حسن[38] التنظيم[*]، وتوزع فيه الأعباء على أســـاس المواطنة القائمة على الحرية والمســـاواة بين جميـــع أفراد المجتمـــع[39]، كي يتمّ التوصل إلـــى بناء مجتمع يُعَدّ نظـــامَ تعاونٍ منصفًا[40]. وهذا يعني أن رؤية رولز كشـــفت عن المبادئ الناظمة للعدالة في المجتمعات التعددية الحســـنة التنظيم

(36) رولز، العدالة كإنصاف، ص 96.

(37) أي إن «المفهوم السياســـي مؤيد مـــن العقائد المعقولة الدينية والفلســـفية والأخلاقية رغم تعارضها، وهي العقائد التي لها جســـم مهم من الأتباع وتدوم من جيل إلى الجيل الذي يليه»، انظر: رولز، العدالة كإنصاف، ص 133.

(38) رولز، العدالة كإنصاف، ص 69.

(*) «مجتمع ذو بنية أساسية ويتألف من أشخاص هم مواطنون أحرار ومتساوون، يعرفون مبادئ العدالة، ولديهم حس بالعدالة»، انظر: رولز، العدالة كإنصاف، ص 406.

(39) رولز، العدالة كإنصاف، ص 95.

(40) رولز، العدالة كإنصاف، ص 91.

التي تتصارع فيها وتتعايش تصورات الخير الجماعي المختلفة التي بدأت تبرز تجلياتها في الدراسات اللغوية الحالية.

تُعَدّ نظرية الحقوق الثقافية التي عرضهـا ويل كيمليكا الأكثر أهمية، وهي التي تبنّى فيها مقاربة تحاول الإجابة عن غياب العدالة الثقافية أو الظلم الثقافــي[41]، إذ يرى أنّ مــن البديهي حين تقويم الأسس المعيارية لحماية الألسنة أن يتمّ تناول قضية العدالة اللسانية من خلال نظريات العدالة.

يضاف إلى ذلك أنّ فان باريس عمل فــي بحوثه على تحديد مشــكلة عــدم المســاواة أو الظلم المســلّط علــى المجموعات الاجتماعية بقوله: «إنّ الأشــخاص الذين يتكلمــون لغات مختلفة عن تلــك المتداولة فــي الدولة يملكــون فرصًــا وإمكانات غير متساوية»[42]؛ فالتحدّث بلغة الأقلية يكون مرتبطًا عادة بالمرتّبات أو الدَخول القليلة التي تُخصَص للأقليات، وكذا الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية غير المستقرّة.

أشــار ديفيد روبيشــو[*] (D. Robichaud) فــي فصل «مذهب المســاواة الليبرالية ونظريــات العدالة» من أطروحــة أعدّها لهذا الغرض، إلــى أنّ مذهب المســاواة الليبرالي مؤسَّــس على بداهة

---

(41) Robichaud, p. 36.

(42) Robichaud, «Une Théorie normative de la diversité linguistique».

(*) ديفيد روبيشــو: أستاذ فلســفة مســاعد، يهتمّ بالحقوق اللســانية والثقافية. مــن أعماله الرســالة المذكــورة فــي الهامــش «Une théorie normative de la diversité linguistique»، وكتــاب: *Justice et politiques linguistiques: Pourquoi les laisser-fairistes* (Québec: Presses de l'Université du Québec, 2005).

واضحة تسعى الدولة الليبرالية من خلالها إلى أن تكون متميّزة بالشرعية التي تُسند من خلالها اعتبارات متساوية لجميع مواطنيها من جهة، وتتبنّى التوزيع العادل للثروات بين المواطنين من جهة أخرى، والتي يجب أن تكون ظاهرة وملحوظة للجميع. كما رأى أنّ عدم المساواة القائم بين مختلف المجموعات داخل الدولة هو من صميم غياب العدالة في المعاملة.

كما لاحظ تشارلز تايلور(*) (Ch. Taylor) أن ليس في نظام الأشياء ما يبرّر أنّ الأشخاص المنتمين إلى مجموعة محددة يملكون بصورة منظمة أقل من مجموعة داخل الدولة نفسها، فمن البديهي أنّ استمرار عدم المساواة بين مختلف المجموعات داخل الدولة يعود إلى وجود الظلم في المعاملة[43].

يتّوقف أغلب من يتبنّى تيار الليبرالية، وأولئك الذين نظّروا للعدالة التوزيعية، عند أنّ وجودها يعني التساوي في الحقوق بين جميع مواطني الدولة، بغضّ النظر عن اعتبارات الجنس والدين والإثنية[44].

اهتمّ رولز في نظريته بالعدالة التوزيعية التي مجالها الحقوق الفردية للمواطن في المجتمع الليبرالي، وبذلك يكون قد أخلص

(*) تشارلز تايلور: فيلسوف كندي من مواليد عام 1931، من منطقة الكيبيك، يكتب بالإنكليزية، أستاذ في جامعة ماك جيل، يشتغل على الفلسفة التحليلية، والظاهراتية، والهرمينوطيقا، والفلسفة الأخلاقية، والسياسية. من آخر أعماله: *Source of the Self: The Making of the Modern Identity*.

(43) Robichaud, p. 38.

(44) مجيد، ص 216.

لروح وفلسفة الفكر الغربي الذي يقدس الفرد، وأقصى من دائرة انشغاله الحقوق الجماعية للأقليات التي تعيش داخل المنظومة الليبرالية الغربية، ذلك أن ما يهمّ في اعتقاده هو تحقيق العدل في المجتمع لجهة المنافع والأعباء، وهو ما يراه كافيًا لتحقيق الانسجام والتناغم المجتمعيين.

كما جاءت أعمال ويل كيمليكا مؤكّدة «أن طروحات رولز في شأن المساواة في الحقوق والموارد ضمن نطاق الدولة الأمّة تصلح لأن تُستخدم في الدفاع عن الحقوق الجماعية للأقليات الثقافية في الدولة المتعددة الثقافات»[45]، ولتسدّ الثُّغَر التي بدت في نظرية رولز، بالجمع بين الاعتراف بالحقوق الفردية والجماعية للأفراد حتى تستقيم ومفهوم المواطنة الدستورية في المجتمعات التعددية.

طرح كيمليكا مفهومًا للعدالة الإثنية الثقافية، معرّفًا إياها بأنها «غياب علاقات الاضطهاد والإذلال ما بين مختلف الجماعات الإثنية الثقافية، بحيث يتحقق فيها التكامل ما بين إنصاف شتى الجماعات الثقافية عن طريق الاعتراف بحقوق الأقلية من ناحية، والعمل على حماية الحقوق الفردية ضمن المجتمع السياسي لكل من الأكثرية والأقلية»[46]، فهو مقتنع بـ «أن التعددية الثقافية الليبرالية هي أفضل أمل لبناء مجتمعات عادلة وشاملة حول العالم»[47].

---

(45) مجيد، ص 234.

(46) مجيد، ص 22.

(47) كيمليكا، ج 1 ، ص 44 .

يــردّ ديفيد رويبيشــو علــى هــذه الفكــرة، فيبيّــن أنّ الظلم الاجتماعي الاقتصادي المرتبط بمكانــة الأقليات في المجتمع غير ملائم لتفسير الظاهرة، لأنّنا قد نهمل في هذه الحالة ما هو مهمّ في اللغة، أي وظيفتها الهوياتية التي تُعَدّ سر قيمتها.

من هنا انصب هذا التحليل إمّا على:

- أن اللغة هي اختيار فردي، وعدم المســاواة التي تنجم عنه ليس من نظرية إعادة التوزيع.

- وإمّا علــى أنها حالة، وتصحيح عدم المســاواة يمرّ بانتقال لســاني نحو اللغة المهيمنة، وليس بانتقال الثروات التي تلغي عدم المساواة بين المجموعات اللسانية[48].

ثالثًا: المواطنة والمسألة اللغوية

سنعمل على مقاربة مفهوم المواطنة في علاقته بالعدالة اللغوية، محاولين تجاوز تعريفاتها اللغوية وتخريجاتها الدلالية في الثقافتين الغربية والعربية[*]، وكذا المراحل التاريخية التي مرت بها، بدءًا من المواطنة في إطار الدولة المدينة في الفكــر الإغريقي، وصولًا إلى مرحلة الدولة - الأمّة، وانتهاءً بالدولة المتعددة الأمم والثقافات.

---

(48) Robichaud, «Une Théorie normative de la diversité linguistique,» p. 37.

(*) الوطن في لســان العرب هو المنــزل الذي يقيم فيه الإنســان، وهو موطنه ومحله، إذ يقال أوطن فلان أرض كذا وكذا، أي اتخذها محلًا ومســكنًا يقيم فيه. وفي الفرنســي (*Le Petit Robert*) المواطن صفة للذي يسكن حيًّا، وينتمي إليه، وهو الشخص الذي يُعَدّ متمدنًا، وطنيًّا في بلد يعيش في نظام جمهوري.

اتخذ موضوع المواطنة أهمية مضاعفة في هذه المرحلة، نظرًا إلى تفاقم تهديدات الوحدة المجتمعية في عدد من الدول، نتيجة ما تطرحه العولمة من إشكالات كثيرة كوّنت تراكمات متسارعة من التغيرات الإقليمية والعالمية، ربما أخطرها سقوط هيكلة الدولة، وانبعاث الحركات والنزعات التقسيمية بعناوين شتّى، منها على سبيل المثال الخصوصية. وبالتالي تعدّ المواطنة موضوعًا سياسيًا واجتماعيًا بامتياز وذا أبعاد ثقافية وإنسانية[49].

يُنظر عادة إلى مفهوم المواطنة بأنه فكرة ضبابية ملتبسة ومتلونة بألوان شتىّ[50]، نظرًا إلى كثرة المضامين التي تناوبت عليها عبر العصور والأزمنة، ولدى مختلف الاتجاهات والمدارس الفلسفية والسياسية، وفي الأنظمة المختلفة، أقومية كانت أم شمولية، أم ديمقراطية، أم يمينية، أم يسارية.

مع تطوّر فكرة الدولة والأنظمة السياسية والدستورية، ارتبطت فكرة المواطنة كذلك ارتباطًا عضويًا بالتحوّل من دولة أفراد إلى دولة مواطنين، فغدا المواطن مرتبطًا بمضامين قانونية وسياسية واجتماعية.

غير أن ما يهمّنا من هذه المعاني هو المعنى الذي تكوّن حديثًا بعد قيام الدول الديمقراطية التي تحتكم إلى القوانين والدساتير

(49) عدنان السيد حسين، المواطنة في الوطن العربي (الرباط: منتدى الفكر العربي، 2008)، ص 2.

(50) Hugh Starkey, «Citoyenneté démocratique, langues, diversité et droits de l'homme: Guide pour l'élaboration des politiques linguistiques éducatives en Europe, de la diversité linguistique à l'éducation plurilingue,» Strasbourg, Conseil de l'Europe, 2002, p. 7, [en ligne], <http://www.coe.int/t/dg4/linguistic/source/starkeyfr.pdf>.

العصرية، والتي تكرس الحرية والمساواة في الحقوق والواجبات، بغض النظر عن الدين واللغة والعرق والانتماء السياسي.

بناء علــى ذلك، تكــون المواطنــة انتماء الإنســان إلى دولة إقليمية معيّنة بالمعنى الحديث، ووجود وطن يتميز بنشاط وفاعلية وإقليم محــدّد، وعلاقة اجتماعيــة بين الفرد والدولــة، فضلًا عن التزام بالتعايش الســلمي بين أفراد المجتمع، ومشاركة في الحقوق والواجبات[51].

هكذا، ما عادت المواطنة ولاء عاطفيًا وانتماء للوطن فحسب، بل صارت كذلك انتظامًــا عامًا له محدّداته وأبعــاده، فهي الإطار الجامع لتفاعل المواطن مــع وطنه، ولعلاقة المواطنين في ما بينهم ضمن الدائرة الوطنيــة للدولة التي صارت محــدّدة في جغرافيتها السياسية، ومركزها القانوني وطبيعتها الاجتماعية والاقتصادية[52].

يحيلنا تعريف المواطنة والوصف أعلاه إلى التأكيد أنّها تستند إلى مرتكزين رئيســين: الحرية[*] والمســاواة، وهو مــا يعيدنا إلى

---

(51) وهبة الزحيلي، «مفهوم المواطنة في المنظور الإســلامي،» مجلة التسامح، العدد 15 (صيف 2006)، ص 12.

(52) السيد حسين، ص 3.

(*) ربما كان انعدام هــذه النظرة لدى الأنظمة العربية نحــو مواطنيها، هو الذي جعل «المواطنين» في تلك الدول يســخطون على دولهم، فقامت المعارضة المسلحة، وهو ما لا نراه في الدول الغربية التي ترى أن المواطن يجب أن يحظى بإنسانيته وتقديره واحترامه. وعلينا أن نشــير هنا إلى أنّ مصطلح الحرية بمفهومــه الحديث الذي أنضجته الثورة الفرنسية يعدّ مصطلحًا مســتحدثًا في ثقافتنا العربية، وللأسف الشديد لم نطوّر ما فيها من حرية ومســاواة وعدالة، بل ظلّت عبارتا الحرية والتحــرّر مرتبطتين حتّى القرن الثالث عشر الهجري بدلالات ســلبية متعلّقة بمعاني الرقّ والاستعباد والعبودية، وجميع ما يصيب ذلك من صفات سلبية، مثل الذل والخسّة والكسل، وربما أدى إلى سوء توزيع الثروات والإجحاف فيها، والعدالة الغائبة في كثير من المؤسسات.

مفهوم رولز للعدالة الاجتماعية الذي يقدّم قائمة من أنواع الحريات تضمّ: «حرية الفكر، وحرية الضميــر، وحرية الانضمام إلى رابطة، والحريات الشــخصية مثل حرية عدم التعرّض للاعتقال العشوائي، وحقوق التقيد بشــرعية القانون والمحاكمة العادلة، ومن الحريات الأساســية حق التصويت وحرية الصحافــة»[53]. فالمواطنة التامّة إنمــا قوامها جوهر العدالة المتجسّــد في الحرية والمســاواة، وما ينجم عنهما من حفظ للحقوق اللغويــة وغيرها لمختلف مواطني الدولة العصرية التي تعترف بالتعدّد ضمــن الوحدة، والقائمة على مبدأ حيادية[*] الدولــة تجاه مواطنيها؛ بل يُنظــر إليها بعين الرضى والاحترام والمســاواة. وأثبتت التجارب في الفترات المتعاقبة من التاريخ، وفي أغلب المجتمعات، أنّ معالجة إشكالات الأقليات لا تكون بالقمع أو الانفصال، بقدر ما تحلّ بتكريس المواطنة شــعورًا وحقوقًا والتزامًا وانتماءً وانفتاحًا علــى العالم، فهو التنوّع في إطار الوحدة، تنوّع الخصوصيات ووحدة المواطنة[54].

لا تعني المساواة أن يتمتع جميع الأفراد بالحقوق والواجبات نفسها، بل أن يكونوا متساويين أمام قانون يحدّد الحقوق والواجبات

---

(53) ديفيد جونستون، مختصر تاريخ العدالة، ترجمة مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة؛ 387 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2012)، ص 256.

(*) لا شكّ في أنّ فهمنا للحياد هنا ينطلق من بُعده الإيجابي والمثمر والمؤسّس على العقلانيــة والمصالح العليــا للأمّة، والذي ترعــى الدولة بموجبــه حقوق جميع المجموعات اللغوية المتســاكنة، بصــرف النظر عن تباينها قوة وضعفًــا، ضمن إطار ما يُعرف بدولة «الحق والقانون».

(54) السيد حسين، ص 15.

بحسب الاستحقاق والكفاءة بعد أن اتّفقوا عليه، فلا يتجاوزه شخص مهما يكن نسبه أو جنسه أو ماله.

لذا، فإن القانون فوق الجميع، وبه تسود العدالة الاجتماعية. ويُعَدّ الاختلاف بين الأفراد أمرًا طبيعيًّا لا بدّ منه لبناء المجتمع، وأنّه مصدر ثراء ورحمة لا وسيلة للتمييز بينهم، فقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرعَةً ومِنْهاجًا وَلَوْ شاء اللهُ لَجَعَلَكُم أمّةً واحِدةً وَلَكن لِيَبْلُوكم فِي مَا آتاكُم﴾[55]. فالعدالة هي الضمان لاستمرار العيش في جماعة، وعليها تقوم المعاملات والعلاقات بين الأفراد والجماعات، وهي التي ينشدها الجميع، حاكمين ومحكومين، ومن دونها ينقلب المجتمع إلى حالة فوضى يحكمه قانون الغاب، فيسود الاضطراب ويعمّ الظلم والجور. كما أن بانعدامها تسقط الدولة وهياكلها عاجلًا أم آجلًا، فالعدل أساس المُلك، وبالمساواة تتحقّق العدالة، ولذلك قال الفلاسفة «إنّ العدل هو الإنصاف»[56]. وأدرك ابن تيمية أهمية العدل وقيمته حين قال: «إنّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام»[57].

---

(55) القرآن الكريم، «سورة المائدة،» الآية 48.

(56) مصطفى أحمد صقر، فلسفة العدالة عند الإغريق وأثرها على فقهاء الرومان وفلاسفة الإسلام (مصر: مكتبة الجلاء الجديدة، 1989)، ص 43.

(57) أحمد بن عبد الحليم بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، مجموع فتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، وابنه محمد (الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1991)، ج 28، ص 146.

كما أثبتت التجارب السياسية المعاصرة أنه يمكن أن تتعايش مجموعات لغوية متعدّدة في تناغم وانسجام اجتماعيين تامين ضمن دولة واحدة، على الرغم من عدم امتلاك المجموعات اللغوية السلطات المادية والمعنوية ذاتها، بحكم التفاوت في عدد الناطقين بكل لغة، وبالتالي ينشأ ما يعرف بالأغلبية والأقلية، أي إنها تتعايش في إطار قانوني مبني على أسس العدالة الاجتماعية. ويرجع ذلك إلى أن الدولة اعتمدت مفهومًا للمواطنة يحيل إلى مبدأ المساواة أمام القانون، ويحفظ كرامة الجميع ويحترمها، حتى في حالات عدم التساوي، وهو أمر طبيعي نظرًا إلى احتكام الجميع إلى القاعدة الديمقراطية التي تنص على خضوع الأقلية للأغلبية، واحترام هذه الأخيرة للأقلية. بمعنى آخر، يكفي أن يحوز الفرد جنسية البلد الذي يقيم فيه ليكتسب حقّ المواطنة التامّة، فضلًا عن الموصوف بأنه ينتمي إلى ما يعرف بالشعوب الأصلية.

لا بد من أن ندرك أن المواطنة المعاصرة لا تعمل على الإدماج القسري للأقليات ضمن النسيج العام لكيان الدولة، بل تعترف بجميع مواطنيها مهما تعدّدت لغاتهم، وتنوعت ثقافاتهم، وبجميع الحقوق من دون تمييز، مثل حق إنشاء الجمعيات وممارسة أي نشاط سياسي أو ثقافي.

من هنا نرى أنّ الدساتير السياسية الليبرالية الحالية التي تُؤسّس عليها الممارسة السياسية في الدولة المدنية ترى في التنوّع اللغوي تعبيرًا مشروعًا عن الهويات المختلفة التي تتقاسم فضاء الدولة[58]،

(58) Starkey, «Citoyenneté démocratique,» p. 9.

وتعمل على احتوائه وتأطيره حفاظًا على تماسكها وقوّتها.

من هنا ندرك أن العدالة الاجتماعية لا تقتضي «أن يعامل الأفراد على أنهم متساوون سياسيًا وحسب، بل التعامل أيضًا مع معتقداتهم الثقافية على أنها معتقدات صائبة بصورة متساوية، وأن تتمّ مأسستها في المجال العام»[59].

لا ريب في أنّ أوّل خطوة تضع الأفراد على طريق التنمية والتقدّم هي امتلاكهم إرادة التعايش في ما بينهم، والقدرة على تحقيقه. فإذا ما اعترف بعضهم ببعض، واحترم كلّ واحد منهم الآخر، وأقرّ بشراكته ودوره، فحينئذ يمكنهم العمل معًا لتجاوز حالة التخلّف الشديد الذي يحيونه، وللانطلاق نحو أفق أرحب للحضارة والتمدّن، فينعم كلّ فرد بتلك الحرية والمساواة، وتتحقّق العدالة الاجتماعية واللغوية التي تؤكّد ضرورة التوافق على مبدأ التعايش والقبول بالآخر، ومشاركته بدلًا من التفكير في إلغائه أو تجاهله وتهميشه[60].

بناء على ما سبق، يتمتّع مواطنو الدولة التعدّدية بجملة من الحقوق اللغوية، يمكن أن نجملها في الآتي:

- لكلّ مواطن ينتمي إلى جماعة لغوية الحقّ في التعبير عن آرائه ونشرها بلغته.

---

(59) مجيد، ص 43.

(60) حسن الصفار، التنوع والتعايش: بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية ([بيروت: دار الساقي، 1999])، ص 9 - 10.

- احترام الحياة الخاصة لأفراد الجماعات اللغوية المختلفة، وحفظ كرامتهم.

- منع جميع صـــور التهميش والإقصاء الاجتماعيين بســـبب الانتماء اللغوي.

لذا، فإن الدولة مطالَبة، لاكتساب شـــرعيتها ومكانتها وهيبتها في نفـــوس مواطنيها، أن تحقّق العدالة اللغويـــة، من خلال تعاملها بالاعتبارات ذاتها مع مواطنيها كافّة بوساطة التوزيع العادل للمنافع، بغضّ النظر عن انتماءاتهم اللغوية[61].

- الحقّ في التجمع والتجمهر المشروعين لغايات سياسية أو ثقافية أو لغوية، الذي يكفله الدستور والمواثيق السياسية للدولة.

- حقّ المواطن في التقاضي باللغة التي يفهمها ويتكلّم بها.

- الحقّ في ممارسة العمل النقابي والانتماء الحزبي.

- حقّ المواطن في الاستخدام الخاصّ والعام للغته الأمّ، وفي تلقّي تعليمـــه الأوّلي بها، وذلك بأن تمكّنـــه الدولة من: تعلّم لغته، وحقّه في استعمالها، وإدخالها إلى منظومة اللغات الحية[62].

- لكل جماعة لغوية الحق في أن تطمح، وتســـعى إلى جعل لغتها لغـــة للحياة والمعرفة، وأن تســـمو بها إلـــى مصاف اللغات العالمية.

---

(61) Robichaud, p. 38.

(62) صالح بلعيد، فـــي المواطنة اللغوية وأشـــياء أخرى (الجزائـــر: دار هومة، 2008)، ص 19.

- على الدولة أن تتدخّل بما لديها من إمكانات مادية وبشرية ومعنوية لإعطاء لغاتها المكانة اللائقة في التعليم والإعلام والإدارة، وأن تلزم أفرادها بتعلّم اللغة المشتركة التي هي اللغة العربية في المغرب العربي، واحترامها والعمل على ترقيتها وتعميم استعمالها، وعدم ازدرائها والانتقاص منها.

ربما يؤدي غياب مثل هذه العدالة اللغوية في مجتمع من المجتمعات إلى أن يحتلّ الناطقون بلغات الأقلية وضعًا أدنى في السُلّم الاجتماعي، مع ما يترتّب على ذلك على مستوى الدخول، مقارنة بالناطقين باللغة المهيمنة، أي لغة الأكثرية[63]، ويجعل حياتهم شقيّة، فوق صفيح ساخن يغدو لهيبًا يلتهم الأخضر واليابس. ولذا، لا بد من ممارسة هذه الحقوق اللغوية ضمن نطاق احترام حقوق الإنسان، وعدم التعدّي على الحريات الخاصة لباقي مواطني الدولة، فضلًا عن عدم المساس بقوانينها.

حريّ بنا أن نؤكد هنا أنّه لا يُفهم من حق المواطنة اللغوية لكل جماعة لغوية أن يكون على حساب اللغة الرسمية، بوصفها اللغة المشتركة الموحّدة لأفراد المجتمع والمقوّية لأواصرهم، والتي يُفرض على الجميع تعلّمها واتخاذها قناة تواصل مشترك بين جميع مواطني الدولة على اختلاف ألسنتهم؛ ذلك أن الهدف الأول والأخير هو بناء دولة خالية من التنافر والاختلاف والنزاع الذي يؤدّي إلى الفشل.

---

(63) Robichaud, p. 36.

غيـــر أن ذلك لا يكون إلّا بلســـان مشـــترك، لأن «العلاقة بين مفهوم المواطنة ومفهوم الثقافة الوطنية هي علاقة مشاركة إبداعية في خلق فضاء وطني جديد متجـــدّد يتجنّب العزلة والانكفاء، ويحارب التعصّـــب والشـــوفينية، ويؤســـس للاندماج والوحـــدة على قاعدة الديمقراطية واحتـــرام التعدد وصيانة حقوق الإنســـان»[64]. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ «من رافعات السياسة اللغوية إيجاد خطّة لتنظيم اســـتعمال اللغات الموظّفة، بتحديد واضح لوظائف اللغة الرسمية المشـــتركة، وتحديد أدوار اللغـــات، اللهجـــات ذات البُعد الهويّ، ووظائف لغات الانفتاح، درءًا للمواجهات أو فكّ الاستقرار»[65].

المعـــروف والمتداول في هذا الســـياق هو أن تلك السياســـة اللغوية تكون وليدة مشـــروع مجتمعي، ووليـــدة الكيفية التي يحدّد المجتمع بها مســـتقبله، ارتكازًا على المؤسســـات التـــي تتوافر له، ولا بدّ من أن تستند هذه السياسة إلى مبادئ الهوية الثقافية الوطنية الشـــمولية، والتنوّع الإثني/ المحلّي (أو الجهوي)، وعالمية التقدّم والمعرفة[66]، وهو ما يُقصد به تعلّم اللغـــة الأجنبية التي ينبغي ألّا تصبح انســـلاخًا عن الهوية، وإنما وسيلة من وســـائل نقل المعرفة وإفادة الفكر العربي الذي لم يعرف كيف يستفيد من جميع ما يعجّ حوله، على الرغم من أنّ له النموذج في تراثه.

---

(64) محمد الصافوط، المواطنة والوطنية (المغرب: مطبعة النجاح بالدار البيضاء، 2007)، ص 71.

(65) عبد القادر الفاســـي الفهري، اللغة والبيئة (الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2003)، ص 11.

(66) الفهري، ص 11.

رابعًا: التعدّد اللساني والعدالة اللغوية

يلاحِظ الدارس أنّــه «لا توجد لغة من اللغــات الألوف على كرتنــا الأرضية نموذجًــا مثاليًا للغــة على أخرى، فاللغــات كلّها متســاوية، بما في ذلك اللغات البدائية في غابة الأمازون، وأدغال أفريقيا، ولغة الإســكيمو، إذ كلّ لغة بحاجة إلــى نظيرتها الأخرى التي تسبقها اختراعًا وثقافة، فينشــأ بينهما ما يدعى عادة الاقتراض أو الاســتعارة، لأنّ اللغات كالقبائل والشــعوب يحتاج بعضها إلى بعض، ولا تتكامل إلاّ بغيرها»[67].

ســيجد المحلّل لمكوّنات المجتمعات وتشــكيلاتها البنائية المختلفة، إن من حيث إثنيتها أو من حيث انتماءاتها أو غيرها، أنّه يصعب العثور على مجتمع يتصف بأحادية مطلقة. كما يصعب أن نجد دولة أو مجتمعًا يتحدّث بلغة واحدة، ذلك أنّ التعدّد اللغوي أمر واقع، وسمة من سمات جميع المجتمعات، وعلى كلّ سياسة لغوية رشــيدة أن تعمل على تأكيــده وتهذيبه وتوجيهــه بدلًا من محاربتـه.

على الرغم من أن التعدّد في أغلب المجتمعات البشرية سمة من ســمات المجتمع الحيّ، إذ برزت أنواع شتّى من مظاهر التعدّد اللغوي المتداخل الذي يتّسم بالاســتقرار والديمومة، فإنه يبدو في أحيان أخرى هش الجانب ومحدود الآجال بسبب الاحتكاك المولّد للصراع اللغوي. ومن أبرز نتائج الاحتكاك اللغوي الذي ينشــأ بين

---

(67) عبد الجليل مرتاض، «التنمية اللغوية، مــن أين تبدأ؟،» مجلة اللغة العربية، العدد 9 (2009)، ص 73 .

المجموعات اللغوية، تبنّي أو فرض استخدام إحدى اللغات على كثير من المتكلّمين بلغات أخرى.

لا شكّ في أن سياسة الإملاء والضغط هذه، أكانت نتيجة متوقّعة لسياسة لغوية مخطّط لها سلفًا أم حتمية أملتها عوامل اجتماعية طارئة أخرى، فهي تورث جملة من التحدّيات التي تهدّد سلامة البنية الاجتماعية، وهو ما أضحى حقيقة مصدر قلق حقيقي لكثير من الناس[68]. وبات يتطلّب سياسة لغوية رشيدة، تضع في رؤاها وحسبانها واستراتيجيتها عدالة لغوية تراعي حقوق المجموعات اللغوية واحترام اللغة المشتركة التي تتبناها الدولة.

لذلك، لو كان ثمة تفاضل، لما كان هناك اختلاف بين الألسن يُعدّ سنّة الله في خلقه، إذ قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَماوَات والأَرْض، واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إنّ في ذلك لآيات للعالمين﴾[69]. وفي هذا الصدد ذكر لويس جان كالفي: «إن كان ثمّة حرب بين اللغات فلأنّ العالم متعدّد، ولأنّ التعدّد اللغوي هو الأصل، ولو كان يمكن للعالم أن يكون أحادي اللغة لما حدث فيه صراع؛ ومن هنا وَهْمُ الحلّ المسالم في ابتداع لغة اصطناعية عالمية كلغة الإسبيرنتو، أو كاللغات المصطنعة الأخرى، إنّه وهْمٌ لأنّه يخالف حقيقة جوهرية في اللغة: حقيقة التعدّد»[70]؛ فالتعدّد

(68) برنار صبولسكي، علم الاجتماع اللغوي، ترجمة عبد القادر سنقادي (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010)، ص 139.

(69) القرآن الكريم، «سورة الروم،» الآية 22.

(70) لويس جان كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة حسن حمزة؛ مراجعة سلام بزي (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008)، ص 19.

اللســـاني يعني تعايش نمطين من الأداء داخل سياق اجتماعي واحد.

كما أن «اللغة ســـاحة من ســـاحات الحرب وأداة من أدواتها. إنّها حـــرب بالمعنى المجازي حينًا، وبالمعنـــى الحقيقي في أغلب الأحيان»[71]؛ فموت لغة ما خســـارة لا يمكـــن أن تعوّض. كما أن الذين يبذلون ما في وســـعهم ويســـعون إلى القضـــاء على اللغات الأخرى، أكان الدافـــع دينيًا أم قوميًا، فإنّهـــم لا يعرفون قيمة تعدّد الألسن، ولا الذاكرة التاريخية المختزنة في رموز اللغة[72].

لهذا الســـبب نجد - اليوم - انبعاثًا كبيرًا للهويات اللغوية، إذ نلاحظ محاولات كثيرة وشجاعة لمواجهة تحدّي الأحادية اللغوية التي تُبشّـــر بها العولمة، والتي لا تعني هيمنة اللغات الغالبة، وإنّما هي في النهاية هيمنة النموذج الثقافي المختزن في رموز الاتصال.

لذا، نميـــل إلى تعريف التعـــدّد اللغوي بأنّـــه مجموعة لغات موجودة في مجتمع مختلف النظام والبنية، عاشت جنبًا إلى جنب، واستعملتها مجموعة معيّنة، وكان أن حدث ذلك التعايش إمّا طبيعيًا وإمّا بفضل احتكاك أو اســـتعمار، أو جميع ما يؤدّي إلى بروز أكثر في الاستخدام داخل المجتمع.

كان جون ســـتيوارت ميل يعتقد أنّ علـــى الجماعات الثقافية الصغيرة أن تتخلّى عن ثقافتهـــا الموروثة كي تنضمّ إلى ثقافة الأمم

---

(71) حمزة، ص 23 (من مقدمة الكتاب).

(72) تاج الدين، ص 150.

الأقوى، وكأنّها تخضع لمبدأ ابن خلدون القائل إن المغلوب مولع بتقليد الغالب.

أمّا فلاسفة السياسة الآن فهم أكثر من ستيورات ميل إنصافًا، لأنهم يدافعون عن الأقليات في جميع أنحاء العالم ويطالبون بحقوقهم، ويسعون إلى الاعتراف بالتعددية الثقافية وما يتفرّع عنها من حقوق للأقليات، وهو ما يؤثّر بدوره في العدالة والمساواة، ومن ثمّ في التطبيق الصحيح للديمقراطية[73].

يمكننا أن نوضح ذلك بتشجيع سياسة استقطاب اليد العاملة من الدول المتوسطية، نتيجة وجود كثير من الأقليات في أوروبا من تركيا واليونان، وكذا المهاجرين من إسبانيا والجزائر وإيطاليا ممن هاجروا بدورهم نحو دول الشمال. وللتعامل مع المشكلات اللغوية والاجتماعية التي نجمت عن هذا الوضع، تبنّت الحكومة النرويجية سياسة لغوية يُتوقع منها تدبير الوضع اللغوي الراهن وتشجيعه بالإبقاء على قرابة مئة لغة موضع الاستخدام[74].

نسجّل هنا أنّ إحصاءات اليونسكو الخاصة بالواقع اللغوي في العالم الراهن كشفت عن وجود نحو ستة آلاف لغة. غير أن المفارقة الغريبة هي أنّ 96 في المئة من سكان العالم يتحدّثون بـ 4 في المئة فقط من تلك اللغات. وإذا كنّا نقدر تلك الآلاف من اللغات التي يُتكلّم بها، فإنّنا قد لا نحتفي في عام 2100 إلّا بـ 2500 منها، ما

(73) انظر مقدمة إمام عبد الفتاح إمام، في: كيمليكا، أوديسا، ج 1 ، ص 10 .
(74) صبولسكي، ص 134.

يعني أنّ لغة واحدة ستموت كلّ أسبوعين، حتى ذلك الوقت. وتبيّن الأرقام المخيفة في شأن انقراض اللغات أن:

- حوالى 170 لغة انقرضت في البرازيل بعد الاحتلال البرتغالي.

- 113 لغة من مجموع 125 لغة يُتحدّث بها في المكسيك انقرضت.

- بعض القبائل في كولومبيا فقدت لغاتها بصورة كاملة.

- في كيبيك انقرض عدد كبير من اللغات، وتلاشى بعضها الآن؛ إذ كان 100 شخص فقط يتكلمون 86 لغة من ضمن 213 لغة أُحصيت في عام 1962.

و«بمعدّل 25 لغة تموت كلّ عام، بات معروفًا لدى المختصّين أنّ 600 لغة في العالم قد أخذت طريقها التدريجي نحو الانقراض. وقد بيّن الباحث الروسي ألكسندر كيبريك أنّ 130 لغة في روسيا قد أخذت طريقها نحو الانقراض بما يكاد يكون نهائيًا»[75].

الملاحَظ أنّ هذه الأرقام مؤلمة، ومن حقّ الناس أن يتألّموا لها، لأنّ الأمر قد لا يرجع إلى أنّ المتكلمين أهملوا لغاتهم طواعية، وإنما كان المِعْوَل اللساني يلوّح به دومًا في أثناء الصراعات بين الأمم، أو بين المجموعات الإثنية. وبناء عليه، فإن اللغة تحتلّ مكانة متميّزة في هوية الأشخاص والشعوب[76].

---

(75) عبد السلام المسدي، «لغة الطفل العربي والتحدّيات الراهنة،» مجلة اللغة العربية، العدد 19 (2008)، ص 155.

(76) Robichaud, p. 2.

في عام 1990 أصدر فلوريــان كولماس باللغة الألمانية كتابه **اللغة والاقتصاد**[77]، وتُرجم الكتــاب بعد عامين إلى الإنكليزية، ثمّ صدرت ترجمته العربية في عام 2000. وتضمّن لمحة موجزة عن موت اللغات، مشيرًا إلى حصيلة المعارف إذ ذاك في هذه القضية. وتعرّض لنامــوس صراع البقاء في المجــال اللغوي، وكيف يرتبط ذلك بحركات الهجــرة الطوعية أو التهجير القســري. وينتهي إلى تأكيد حقيقة حتمية جديدة هي أنّ لغــات العالم في تناقص عددي مطّرد.

في عام 2002 أطلق كلود حجّاج صيحتــه المدوية في كتابه *Halte à la mort des langues* (**ضعــوا حــدًّا لمــوت اللغات**)، وفي العام نفســه أصدر لويس جــان كالفي كتابه **ســوق اللغات**، مدققًا إيّاه بالعنوان الفرعي: «التأثيرات اللغوية للعولمة»، وهو الذي روّج عبارة الحروب اللغوية منذ نشر في عام 1987 كتابه **حرب اللغات والسياسات اللغوية**[78]، وذلك ناجم عن الهيمنة اللغوية التي تتطلّب عدالة لغوية تســمح بإعادة توزيــع أدوار اللغــات ومكانتها داخل الخريطة اللغوية للمجتمع، وكذا التكلّمات الاجتماعية.

هكذا، فالموقف اللغوي الأحادي غير المتّزن يتســبّب بردّات فعل تذهب إلى حدّ اتخاذ مواقف في الاتجاه المعاكس. كما لا بد من أن نشير إلى أنّ التعدّد ســمة الوحدة وجمع الشمل، وليس مشروعًا

(77) فلوران كولمــاس، **اللغة والاقتصــاد**، ترجمة أحمد عــوض؛ مراجعة عبد الســلام رضوان، سلســلة عالم المعرفــة؛ 263 (الكويــت: المجلس الوطنــي للفنون والآداب، 2000).

(78) المسدي، ص 152-154.

لتمزيق جميع مكوّنات المجتمع التي تنعكس على نسيجه[79].

تخيّل اللســـاني ديفيـــد كريســـتال[*] (D. Crystal) الزمن الذي ستهيمن فيه اللغة الإنكليزية على العالم أجمع، وتتحوّل فيه إلى لغة التواصل الوحيدة، وخلُص إلى أن «هذا ســـيكون أكبر كارثة تعرفها البشرية عبر التاريخ»[80].

الغريب هو أنّ مســـألة انقراض اللغـــات لا تعني اختفاء جهاز اتصالي فحســـب، وإنّما تدلّ على انقراض أمّة وضيـــاع ثقافة[81]، وضياع معطيات لعلماء النفس ومتخصصيـــن يهتمون بالعلاقة بين اللغة والفكر[82]، وبالتالي يكـــون في ذلك ضياع لآداب المجموعة المتكلمـــة، وجميـــع ما يعطينـــا فكرة عـــن تجاربهم فـــي حياتهم وتصوّرهم للواقع والعالم.

هكذا، «فكل لغـــة تموت تحرمنا من اكتشـــاف نســـق محدّد ومخصوص من منظمات العقل البشـــري حيـــث تتوالج المقومات اللغوية والنفســـية والإدراكية»[83]، لأنّها تحمل في ثناياها ســـمات

---

(79) الفهري، ص 11.

(*) ولد في عام 1941 في إيرلندا، وتخصص بدراسات اللغة الإنكليزية. له أكثر من 100 كتاب. صدر لـــه أول كتاب في عام 1964، وكرّس جهـــده للبحث في التنغيم والأسلوب والتحليل اللســـاني للنصوص، ويهتمّ حاليًا بالبحث في اللغة، وأسّس جريدة لغة الطفل.

(80) تاج الدين، ص 147، عـــن: David Crystal, *Language Death* (Cambridge, UK; New York, NY: Cambridge University Press, 2000), p. 8.

(81) تاج الدين، ص147.

(82) Robichaud, p. 16.

(83) المسدي، ص 155.

وخصائص فريدة من نوعها ونادرة مقتطفة من زخم الإرث الإنساني الثرّ والمتنوّع. ومن هنا تُعدّ ظاهرة ضياع اللغة من المظاهر التي لا تختلف كثيرًا في واقعها عن انقراض الحيوانات وفصائل نادرة من الطيور أو النباتات[84].

لكن الإشـكال الذي يطرحه هذا الفهم للغة والعدالة اللغوية ميدانيًا هو في صعوبة تحقيقه إجرائيًـا، نظرًا إلى التفاوت الحاصل بين اللغات فـي جوانب متعـدّدة؛ إذ يتعلق الأمر بعـدد الناطقين بكلّ لغة من هذه اللغـات، ومؤهّلات كلّ منها، ومدى قدرتها على اسـتيعاب التطورات العلمية والاجتماعية وإعادة تمثُّلها، والإرث التاريخي الذي يحمله بعضها، وما له مـن رصيد يعمل على تعزيز قدرتها علـى مواجهة التحديات الحضاريـة الحالية، لأن قوة اللغة هي من قوة الناطقين بها.

على الرغم مـن ذلك، تكوّن هـذه التسـاؤلات عائقًا وعقبة أساسـية وفعلية في وجـه تحقيق العدالـة اللغوية المنشـودة في المجتمع المعيّـن والمحدّد. كما أنّ التجـارب العالمية الرائدة في عالمنا المعاصر أظهرت كثيـرًا من الثُّغَر التي ظلّـت ترافق تطبيق هذه العدالة على نحو ما ألفيناه في سويسرا وكندا وبلجيكا وروسيا وتركيا وإسبانيا وغيرها.

لذا، على الرغم من وفـرة النصوص القانونية المنظمة للفضاء اللغوي في هذه الدول، فإن هيمنة لغة واحدة على اللغات الأخرى بقيت واقعًا معيشًـا لا يمكن إنكاره، وهي قضية تحيلنا إلى إشكالية

---

(84) صبولسكي، ص 148.

العدل في منطلقاته ومبادئه: فهل يقام العدل على المساواة أم على التفاوت؟ وهل المساواة المطلقة أساس تطبيق العدالة الاجتماعية؟

خامسًا: آليات تدبير الشأن اللغوي في الدولة التعددية

إذا كانت الأمّة تُعرّف في العصر الحديث بأنّها مجموعة من المواطنين تعيش مستقرّة على بقعة من الأرض، وتجمع بين أفرادها رغبة مشتركة في العيش معًا، وفي تكوين وحدة سياسية، أي دولة، فإنّ العوامل التي تعمل وتساعد في تكوينها تشمل وحدة اللغة والأصل والجنس ووحدة العادات والمصالح والتاريخ المشترك، انتصاراته وانكساراته، واستشراف مستقبل ينعم فيه المواطنون كافة بالحرية والمساواة والحقوق المادية والمعنوية، ومنها العدالة اللغوية.

على أنّ اجتماع هذه العوامل كلها لا يكفي، وإن كان ضروريًا من أجل تكوين أمّة، إذ تعدّ وحدة اللغة في العصر الحديث من أهمّ العوامل التي تعمل على تكوّنها. فإذا ألفينا في ما مضى أن الدِّين كان عاملًا أساسيًا، ورابطًا متينًا، بل وعنصرًا ضروريًا لا غنى عنه لتكوين أيّ جماعة[85]، غير أن أهميته تراجعت، وباتت اللغة هي العامل الأساس في تكوين الأمّة.

لذلك، انصبّت أبحاث المنظّرين السياسيين على الشأن

---

(85) عبد المنعم أحمد بركة، الإسلام والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين في عصور التاريخ الإسلامي وفي العصر الحديث (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1990)، ص 84.

اللغوي، وعيًا منهم بدوره في استقرار الدول ونمائها، أو تفكّكها بفعل الصراعات الإثنية ذات البعد اللغوي، وذلك عبر آليات إجرائية تسمح بإعادة صوغ مفهوم المواطنة الذي يُعدّ المعطى اللغوي من مكوّناته الرئيسة. وتبلورت لديهم نظرية للسياسة اللغوية، تقوم على ثلاث دعائم:

1 - الأيديولوجيا اللغوية

قبل الولوج في تحليل هذا المرتكز، نرى من الضروري طرح مصطلح الأيديولوجيا للتدارس، بقصد إبراز العلاقات القائمة بينه وبين اللغة، وكيف تتحوّل اللغة في حدّ ذاتها إلى أيديولوجيا تتحكّم في توجيه السياسات العامّة المنتهجة في تدبير الشأن اللغوي، إن لم نقل البرامج المتعدّدة والمشاريع التي تتبنّاها الدولة أو المجتمع.

لا شكّ في أنّ مصطلح الأيديولوجيا يكتسب مفهومه من السياق الذي يوظّف فيه، فقد يراد به: معتقدات سياسية أو ممارسات رمزية ذات ارتباط بالفعل الاجتماعي المنظم، وقد يوظّف توظيفًا محايدًا[86]. كما أنه يعني «المعرفة الشوهاء التي تولّد حالة من الوعي الزائف لدى جميع أولئك الذين يعيشون في إطار فهمها للواقع»[87]، وبذلك يتلبس بمعنى سلبي، فاستعماله الذي شاع في أواخر القرن العشرين كان ازدرائيًا، فكان يُطلق دائمًا رديفًا

(86) John B. Thompson, «Langage et idéologie,» *Langage et société*, no. 9 (mars 1987), p. 8.

(87) بينيت، ص 134.

لـ «الواقع» و«العقل» و«الفلسفة» و«الحقيقة»، فيلصق بالآخر تهمة مشينة[88].

بناء على ما سبق من مفاهيم متضاربة في شأن هذا المصطلح، يمكننا القول إنّ المراد بأيديولوجيا اللغة هو مجموع الأفكار والتصوّرات والرؤى والمعتقدات التي ترسّخت في الذاكرة الجماعية لدى أمّة من الأمم بشأن لغتها، وبالتالي أضحت تصرّفاتها الاجتماعية وعلاقاتها بالجماعات اللغوية المتساكنة معها تتحدد في ضوء مجمل ما تكوّن لديها من ترسّبات تتعلق بلغتها، ما يعني أن الأيديولوجيا اللغوية لتلك الجماعة هي التي تتدخّل في ضبط علاقتها بالآخر، وبالتالي تكون كل سياسة لغوية تتبنّاها من وحي تلك الأيديولوجيا.

غالبًا ما يقود هذا الأمر أيّ تيار فكري أو سياسي إلى الاعتراف صراحة بالطبيعة المركزية للغة في الحياة الاجتماعية؛ فالبحوث المنجزة في أكثر من حقل معرفي في العلوم الإنسانية والاجتماعية تؤكد أنّ اللغة ليست مجرّد نظام علامي يصف العالم، بل إنّ وظيفتها أكبر من ذلك كثيرًا، فهي تقوم بدور الوسيط الذي يتدخّل في تحديد تصرّفات الفرد وأنماط سلوكه[89]، وتكوين رؤيته وتصوّره للعالم، وتحديد علاقاته بأفراد مجتمعه وبالآخر، ولها تأثير في نشاطه ومعتقداته وحياته.

على هذا الأساس تُعدّ اللغة مؤسّسة سياسية، فلا يخلو دستور

---

(88) بينيت، ص 137.

(89) Thompson, p. 8.

أيّ بلد، في الأغلب، من تحديد تموضعات اللغات المشتركة والرسمية والوطنية، وإن يكن ينقص تلك الدساتير تحديد علاقتها باللغات الأجنبية ودورها، إن في الإدارة أو في التعليم أو في ما يتعلق بمجال الحياة المختلفة، الأمر الذي يتطلّب التفكير في العدالة اللغوية التي قد تنصف هذه وتردّ الظلم عن تلك.

يحفظ لنا التاريخ عشرات الأمثلة والنماذج لتدخّل الأيديولوجيا في الشأن اللغوي، وتوجيه السياسات اللغوية، خصوصًا في إطار الدول الأمم الحديثة التي تبنّت الأحادية اللغوية سبيلًا إلى البناء والوحدة والتماسك الاجتماعي، وكان الناس «دائمًا في مواجهة الاختلاف اللغوي ميالين إلى السخرية من عادات الآخرين، وإلى اعتبار لغتهم هي الأجمل، وهي الأنجع، وهي الأدق، أي إنهم كانوا دائمًا ميالين إلى تحويل اختلاف الآخر إلى نقصان فيه»[90].

من تلك النماذج التي تصف تأثير أيديولوجيا اللغة في رؤية كلٍ جماعة للغتها، نظرة الإغريق إلى غيرهم، فكانوا يعدّون بربريًا كلّ من لا يتكلّم لغتهم[91]، ومثلهم فعل السريان والعبرانيون وغيرهم ممن رأوا أن لغاتهم هي أفضل اللغات[92].

أمّا حديثًا فتعدّ فرنسا أسوأ نموذج في تدبير الشأن اللغوي، خصوصًا في ما يتعلّق بمسألة التسامح اللغوي؛ فعلى الرغم من أنها توصف بأنّها من أعرق الديمقراطيات الغربية وبأن ثورتها

---

(90) كالفي، ص 66 .

(91) كالفي، ص 119.

(92) تاج الدين، ص 148.

رفعت ذلك الشــعار الثلاثي الشــهير «حرية، أخوة، مساواة»، وتُعدّ بإعلانها حقوق الإنســان من المرجعيات العالمية الأولى المؤسّسة للعدالــة الاجتماعية والحريات الفردية، علــى الرغم من ذلك كله، فإنها عُرفت في المجال اللغوي بسياستها اليعقوبية[*] (Jacobinisme) غير المتسامحة مع التنوع اللغوي السائد فيها، فجعلت من الفرنسية عقيدة، وحظرت جميع اللغات المحليــة واللهجات التي يُتكلم بها علــى ترابها وفي مســتعمراتها، إلى درجة أنّها ســاوت في قوانينها المنظِّمة للفضاء اللغوي بين البصق على الأرض في الشوارع العامة والحديث باللغات المحليــة[**][93]. وهذا يعني أنهــا تبنّت أحادية لغوية على خلاف التعددية السياســية الســائدة فيها. وجدير بالذكر أن النخب الحاكمة، على اختلاف مشــاربها وانتماءاتها السياســية والحزبية، أجمعت على هذه الأحادية.

بناء على هذه السياسة، شُــدّد الخناق على اللغات واللهجات المحلية، كلغات إقليــم بريتاني (Bretagne) الــذي يتحدث قاطنوه باللغة البروتونيــة (Breton) في الشــمال، والباســكية (Basque) في

(*) اليعقوبية نســبة إلى نادٍ سياسي أُســس في أثناء الثورة الفرنسية، عُرف بنادي اليعاقبة (Les Jacobins)، وارتبط اســم هذا النــادي بالدكتاتورية، وبالدفاع عن الســيادة الشــعبية، والحرص على مركزية الدولة، ومن ثم أصبح يُطلق على كل نظام شــمولي لا يعترف بالتعددية.

(**) كان هذا النص القانوني يعلق في صورة إعلان في كل منطقة بريتاني الفرنسية إلى غاية عام 1960، ويقول بالفرنسية: Il est interdit de cracher par terre et de parler patois.

(93) Ruth M. Mésavage, Rollins College et Sylvain Masse, «Croisade contre la différence: Le Règne de la terreur linguistique,» [en ligne]: <jffp.pitt.edu/ojs/index.php/jffp/article/download/8/251>.

الجنــوب الغربي، ولغــة البروفنســال (Provençale) فــي الجنوب الشرقي، ولغة سكان جزيرة كورسيكا في البحر الأبيض المتوسط، ولغات أقاليم ما وراء البحار.

كما نصّ دستورها على أنّ لغة الجمهورية هي اللغة الفرنسية، وســنّت القوانين التي تحظر التعدد اللغــوي في جميع المجالات، مثل قانون توبون[*] (Loi Toubon)، ما جعل ويل كيمليكا يشــير إلى الرفض الفرنسي لجميع صور الاعتراف بالتعددية الثقافية واللغوية داخل الاتحــاد الأوروبي بقولــه: «ومن بين هذه الــدول نجد أن الاســتثناء الرئيســي هو فرنســا التي تبقي على مفهوم الاستيعاب للمواطنية في الجمهورية الفرنسية»[94].

يتضح لنا ممّا ســبق أنه على الرغم من أن فرنسا تنعت نفسها ببلد الديمقراطية والتنوّع والحرّية وحقوق الإنســان، فإن السياســة اللغوية التي تنتهجها، وما تتســم به خطاباتها السياســية الرســمية والإعلامية يجعلانها بعيدة كل البعد عن هذا التوصيف.

لكن على الرغم من سياســة الرفض التي أبدتها، وتبديها حتى الآن، فإنها لم تســتطع الصمود في وجه رياح التغيير التي عصفت

(*) صدر هذا القانون بتاريــخ 4/ 8/ 1994 تحت الرقم 665-94، وهو مرتبط باستعمال اللغة الفرنسية. وسُمّي كذلك نســبة إلى وزير الثقافة صاحب الاقتراح آنذاك، وكان غرضه حماية التراث اللســاني الفرنســي، من خلال ثلاثة أهداف رئيسة: 1- إثراء اللغة الفرنســية. 2- إلزامية استعمال الفرنســية. 3- الدفاع عن الفرنســية بوصفها لغة الجمهورية. ووضع أساسًــا لمواجهة ظاهرة الأنكلزة [مــن الإنكليزية] التي طغت على الفرنسية.

(94) كيمليكا، ج 1 ، ص 95.

بالديمقراطيات الغربية، ودفعتها إلى التحول من سياسة بناء الدولة - الأمّة ذات الطابع القومي في المجالين اللغوي والثقافي بتبنّي أحادية ثقافية لغوية، فبدأنا نشاهد بعض المحاولات الخجولة في مجال الاعتراف بالحقوق اللغوية الجماعية للأقليات التي تتكوّن منها الدولة الفرنسية، فأُنشئت في وزارة الثقافة الفرنسية مندوبية عامة للغة الفرنسية ولغات فرنسا، بعد أن كانت في الأصل المندوبية العامة للغة الفرنسية(*)(95)، الأمر الذي يشير إلى إقرار بالتنوّع اللغوي على الأراضي الفرنسية. وأصبح الدارس يطالع في أدبيات السياسة اللغوية الفرنسية مقولات مثل: تثمين لغات فرنسا ونشرها وتعزيزها واحترامها، مهما تكن طبيعتها وعدد الناطقين بها.

يجدر أن نشير إلى أن فرنسا الاستعمارية، صاحبة السياسة اليعقوبية، لم تكتفِ بممارسة الحظر اللغوي على مواطنيها، بل نقلته إلى مستعمراتها، فعملت على نشر لغتها وفرضها بقوة الحديد والنار والقوانين المجحفة، فحاربت بجميع الأساليب والطرائق اللغات الوطنية للمستعمرات، واستخدمت جميع صور الإقصاء والتهميش، وسعت إلى محوها من التداول والوجود، مثل اللغة العربية في الجزائر حين اعتبرتها لغة أجنبية، وسخّرت جميع طاقاتها للقضاء عليها، وعلى من ينطقون بها، ما بقيت آثاره مترسّبة إلى يومنا هذا، فتكوّنت لوبيات [جماعات ضغط] نافذة عملت بكلّ

(*) تحويلها من DGLF، أي La Délégation générale à la langue française إلى DGLFLF، أي La Délégation générale à la langue française et aux langues de France.

(95) Bernard Cerquiglini, «La Diversité des pratiques linguistiques: Richesse d'un patrimoine national,» *Langues et cité*, no. 1 (octobre 2002), p. 4.

ما أوتيت من قوّة وسلطة لإبقاء هيمنة الفرنسية على مشهد الجزائر المستقلة.

يوضّح هذا التهميش أنّ اللغة، بما تختزنه من رموز ودلالات وثقافة، كانت ولا تزال أيديولوجيا راسخة، كما يتضح ممّا تولّد من اللغة الفرنسية في الجزائر، إذ أصبحت عقيدة لا يرضى المتشبثون بها بديلًا منها، ويدافعون عنها (لأنها مصدر قرار نفوذهم) ويدعون إليها، وإلى ثقافتها وسياستها، ويتبنّون ما يوضع لها من مشاريع وبرامج. كما يتجلّى ذلك في سلوكياتها مع مستعمراتها القديمة، عبر منظمة الدول الفرانكوفونية، بتمويلها المشاريع الثقافية والعلمية للدول التي تنطق بلغتها، بل ذهب بعض المسؤولين السياسيين الفرنسيين إلى حد القول إن تدريس اللغة الفرنسية لغير أبناء فرنسا إنما هو تكوين لمقررين سياسيين نافذين في مستقبل ذلك البلد، سيفيدون فرنسا.

لكن مع المنحى الذي اتّخذته الدراسات اللسانية والأنثربولوجية والفلسفية في شأن طبيعة اللغات في بدايات القرن العشرين، خصوصًا مع الثورة اللسانية التي أحدثها دي سوسير، والقطيعة التي أوقعها في صلب الدراسات اللسانية، بإخراجها من طابعها المعياري، والاتّجاه بها اتجاهًا وصفيًا، تغيّرت النظرة إلى اللّغات، خصوصًا نظرة تفوّق لغات معيّنة وسيادتها، وانحطاط أخرى وبدائيتها، وغير ذلك من النظريات العرقية ذات الأبعاد العنصرية، وهي رؤى أيديولوجية عملت على تكريس دونية شعوب العالم غير المتقدم آنذاك.

غيـــر أن الأفق بـــدأ يزدحم بدراســـات تتســـم بطابـــع علمي موضوعي محايد عن أهمية جميع اللغات من دون استثناء في إقامة التواصل، وفـــي كون كل جماعة لغوية تنظر إلـــى العالم من خلال لغتها، وأنّ الإنسان لا يرى إلّا ما تريه لغته، وأنّ التجارب الإنسانية قد تكون واحـــدة لجميع الشـــعوب، ولا يختلــف إلّا تقطيع تلك التجربة، تبعًا لعبقرية هذه اللغة أو تلك[96].

كما أثبتت هذه الدراسات تســـاوي اللغات كلها في الوظائف التي تؤدّيهـــا بوصفها وســـائل للتواصل، وفي تعبيرهـــا عن الهوية الجماعية والفرديـــة، وأنّ الفـــارق بينها قد يكون فـــي أنّ أوضاعًا تاريخية معيّنة قـــد تخدم لغة ما فتجعلها في مركـــز الريادة، وإذا ما توافرت تلك الأســـباب لغيرهـــا، فقد تدفعها إلـــى مصاف اللغات الراقية، ما يعنـــي أنّ جميع اللغـــات قابلة للرقيّ والتطـــوّر، بل إنّ الخاصية التطوّرية هي ســـمة كل فعل أو سلوك اجتماعي، ولا تشذّ اللغة عن هذه القاعدة.

بناء علـــى ذلك، يمكننا القـــول إن أيديولوجيـــا التفوّق بدأت تختفي مـــن أدبيات الدراســـات الاجتماعية والإنســـانية المعاصرة ليحلّ محلّها التسامح مع التنوّع والاختلاف، ويكون قوامها احترام جميع التكلّمات مهما تكـــن طبيعتها، وإنّ لهجة مـــا قد تصير لغة رسمية، كما قد تنحطّ لغة ما إلى مرتبة لهجة، عامل سياسي محض، لا علاقة له بالطبيعة اللسانية المتأصلة في جوهرها.

---

(96) Edward Sapir, *Linguistique*, traduction de Jean-Elie Boltanski et Nicole Soulé-Susbielles; présentation de Jean-Elie Boltanski (Paris: Editions de Minuit, 1968), p. 29.

إضافة إلى ما سبق، أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية ما في التنوع اللغوي والثقافي - مهما يبدُ مشرذمًا - من أثر إيجابي لوحدة الشعوب، وثراء التراث الإنساني. كما يُذكر في هذا المجال الدور الذي أدّته الترجمة وتكنولوجيا المعلومات وثورة الاتصالات الحالية في التقريب بين الشعوب، وإزالة الحدود الفاصلة بينها، وفي تغيير النظرة النمطية التي كانت سائدة، وبالتالي في إذابة الترسّبات التي صنعتها الأيديولوجيا عن لغات الأقليات أو الأكثريات، فأضحى التعايش والتسامح والاندماج في إطار التنوّع، والاختلاف معزّزًا وحدة الثقافة اللغوية المشتركة بين جميع اللغات والثقافات المتساكنة.

نخلص إلى أن الأيديولوجيا اللغوية هي مجموعة أفكار قد تكون صحيحة أو خاطئة، وقد يكون مصدرها أساطير أو معتقدات دينية وغيرها، فتترتب عليها مواقف لغوية مؤثّرة في السياسة اللغوية، وتتجلّى في الممارسات اللغوية التي يسلكها الفرد أو المجموعة اللغوية أو يتداولانها.

2 - الممارسات اللغوية

يراد بالممارسات اللغوية المسح الميداني الفعلي لجميع التَّكلُّمات اللغوية واللهجية، الناشئة بفعل الاحتكاك بين اللغات، أو بفعل عاملَي الجغرافيا والاجتماع. ويكون ذلك بوساطة تخزين المعلومات والمعارف المجمعة في بنوك معطيات، ومن ثم استثمارها في وضع سياسات لغوية عادلة، تراعي الواقع اللغوي

في المجتمع[97]، ومفاد ذلك أنّه ينبغي أن تؤخذ في الحسبان لأيّ مشروع مجتمعي حتّى يسوده التسامح اللغوي. ذلك أنّه إذا كانت اللغة وسيلة تخاطب وأداة لاكتساب المهارات والمعارف، فإنّها أيضًا بؤرة للصراع الذي يسبّب حروبًا دامية وفتنًا قاتلة تمزّق أوصال الشعوب والأمم، وتنهك قواها، وتضرم روح العصبية فيها، وتشتّت إرادتها، وتذلّ نفوسها وتمحو هويتها، وتضيّق أفقها وتبدّد أملها في مستقبلها، فهي كيان يصنع به المجد كلّه، وبسببه تنشب الحروب، ومنها أكبر حرب على الإطلاق، وهي ما اصطلح عليه بحرب اللغات[98].

لذلك، فإن الممارسة اللغوية هي تعايش لغوي على إقليم واحد. وعلى الرغم من هذا، لا بد من الإقرار بأنّه يصعب حلّ الكثير من التوتّرات اللغوية بسبب التغيّرات المتسارعة، وتشابك العلاقات الدولية، وتنامي ظاهرة عدم التجانس في كثير من المجتمعات، ومنها المجتمعات المغاربية. ولذا ينبغي الإسراع في تخطيط لغوي واعٍ مدروس من جميع جوانبه[99]. ويدور حصر الممارسة اللغويّة السائدة داخل فضاء الدولة التعددية، بمحاولة الإجابة عن جملة من الأسئلة التي تُطرح في أكثر من تخصص،

---

(97) Cerquiglini, p. 4.

(98) خالد بوزياني، «استراتيجية التخطيط اللغوي ومشكل التنمية اللغوية في العالم العربي،» مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد 8 (كانون الأول/ ديسمبر 2009)، ص 196. انظر أيضًا: كالفي، حرب اللغات والسياسات اللغوية.

(99) صالح بلعيد، «بحث في مصطلح (الممارسات اللغوية) في الجزائر،» مجلة الممارسات اللغوية (مخبر الممارسات اللغوية الجزائر، جامعة مولود معمري بتيزي وزو)، العدد التجريبي 0 (2010)، ص 10.

وهي التي تعدّ في حد ذاتها من صلب انشغالات أي مجتمع يعيش التعددية اللغوية.

كما أنها تتموضع - في حقيقة الأمر - في صميم انشغالات الدراسات اللغوية الاجتماعية التي تشدّ اهتمام الباحثين، وقد صارت في الوقت الراهن محل انشغال السياسيين أيضًا، وأصبحت تُطرح على مستوى الهيئات الرسمية، ضمن ما يُعرف بالنظرية السياسية المعاصرة[100].

يمكننا أن نجمل هذه الأسئلة في ما يلي: من المتكلم؟ وبأي لغة/لغات يتكلم؟ ومع من؟ وكيف؟ انطلاقًا من كون اللغة ليست ناقلة للثقافة فحسب، بل هي إنتاج لرموز ثقافية وثيقة الصلة بالروح الإنسانية وقيمها.

ويمكن إدراجها أيضًا ضمن قائمة المكاسب الثقافية المنتمية إلى التراث الثقافي للدولة. وعليه، وجب حماية هذه الممارسات واحترامها لذاتها، والدفاع عنها، وتأسيس وعي معرفي بشأنها، من حيث كونها دائمة التحول والتطوّر، وتجمعها جملة من العلاقات التي يجب معرفة كنه سرّها[101].

عمل صالح بلعيد على ضبط العوامل المؤثرة في الممارسات اللغوية وتحديد هذه العوامل، فوجدها ترتبط بمعطيات العصر

---

(100) Pierre Encrevé, «De L'observation scientifique à la politique linguistique,» *Langues et cité*, no. 1, observatoire des pratiques linguistiques (2002), p. 6.

(101) Encrevé, p. 6.

السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية، وتنقسم إلى عوامل داخلية وخارجية يمكن حصرها في:

- الأرضية المعرفية للمتحدثين.
- ثقافة المجتمع.
- الحراك الثقافي والأيديولوجي والاقتصادي.
- لغات المدرسة.
- السياسة اللغوية للدولة.
- وسائل الإعلام.

أمّا العوامل الخارجية، فأرجعها إلى:

- تأثير اللغات الأجنبية.
- مؤثرات العولمة.
- تأثير لغة المستعمِر.
- تأثير وسائل الإعلام الخارجية.
- الآليات والأجهزة المعاصرة وما يلحقها من تسميات[102].

كان من نتائـــج ذلك مســـاهمة تجميع المعلومـــات المتعلقة بالممارســـات اللغوية في ترقية اللغات التي تتقاسم المشهد اللغوي العام داخـــل الدولة، ولهذا يمكـــن العمل على الارتقـــاء بالتعددية

---

(102) بلعيد، «بحث في مصطلح،» ص 20.

اللغوية بوصفها ضامن التنوع الثقافي، ما يتطلّب وضع سياسة لغوية متوازنـــة ومتكاملة مبنية علـــى حقائق ومعارف ميدانيـــة عن الواقع اللغوي وبعيدة عن الانطباعـــات، والعواطف القبليـــة، لأنّ منطلق الممارسة اللغوية اجتماعي في المقام الأول.

إضافة إلى هـــذا، يُفتـــرض أن يترتب على المســـح الميداني للممارســـات اللغوية وحصرها وضبط تنوّعها وثرائها، خدمة اللغة المشتركة الرسمية وإخراجها من عزلتها، بحيث يترسّخ لدى مواطني الدولة ما يمكن وصفه بالأمن اللغوي، ليزول شـــعور الإجبار الذي يحسّ به الناطقون بلغات الأقليات[103] في تعلمهم اللغة المشـــتركة بوصفها اللغة الجامعة المحققة للتواصل داخل الدولة، الأمر الذي ينعكس إيجابًا على التنمية العامة للبلد.

يُســـتنتج ممّا ســـبق أنّ المســـح الميداني الموضوعي لجميع الممارسات معناه الاعتراف بالتنوّع، وتأسيس عقد اجتماعي يكون من مبادئه رفـــع الضيم وجبر خاطر جميع الأقليات المتعايشـــة مع الأغلبية في إطار الدولة المعاصرة.

لكن لتفادي ما قد ينجم من سلبيات ومخاطر عن ذلك المسح، تقتضي الضرورة تخطيطًا لغويًا يراعي الأبعاد الكبرى للوطن، وكذا جميع التغيّرات، ويحفـــظ للغات الموظّفة فـــي المجتمع مكانتها، بل ويقضي على الهجيـــن اللغوي الخطِر الذي بدأت تلوح ملامحه في أفق الممارســـات اللغويـــة والتواصل في المجتمعـــات العربية والمغاربية خصوصًا.

---

(103) Cerquiglini, p. 4.

3 – السياسةُ والتخطيط اللغويان

يُقصد بالسياسة اللغوية (Politique linguistique) القوانين الرسمية التي تخطّط لتهيئة لغة معيّنة في مجتمعات متعدّدة اللغات، فتجعل من لغة معيّنة لغة رسمية بقوّة القانون والدستور[104]، لكن السؤال المطروح: ما العلاقة بين السياسة اللغوية والعدالة اللغوية؟

لا شكّ في أنّنا نلفي العلاقة بينهما وثيقة، لأنّ المجتمع المتعدّد اللغات قد تهيمن فيه لغة على أخرى أو أُخَر، من دون وجود قانون أو حماية قانون جائر، فتنعدم المساواة، وبالتالي تضطهد أقليات اجتماعية، أو تشعر – على الأقلّ – بالحيف والظلم لأنّها محرومة من ممارسة لغتها التي جُبِلت عليها، ويؤدي إحساس جزء من المجتمع بالخلل إلى عرقلة مساره التنموي، بسبب عدم وجود تكافؤ فرص في تعلّم لغات المجتمع أو الشعور بتهميش واحدة منها تتكلّم بها فئة «ملوكة» فيه، أو لم تأخذ مكانة تستحقّها، ما يجعلها تطلب من السلطة التدخل، وتكافح في أغلب الأحيان من أجل لغتها. فوجود لغتين أو أكثر في مستويين متناقضين، أو وجود إحداهما في مكانة أرفع، قد يدفع السلطة السياسية إلى السعي للبحث عن التوازن اللغوي أو العدالة اللغوية.

سيتطلّب ذلك وضع سياسة لغوية يكون أساسها تدبير الشأن اللغوي ومعالجته في الدولة الوطنية لإقرار لغة مشتركة يتواصل

(104) بوزياني، ص 195.

بهـا الجميع، فتكـون حاضرة في مؤسّسـاتها المختلفـة، ويعمّم استعمالها مع مراعاة التكلّمات الأخرى ضمن المجتمع الواحد، ليحافظ هذا المجتمع على وحدته وكيانه طواعية وعن اقتناع، ومن دون محاولة الدعوة إلـى غير ذلك، حتى لا تكـون ظلمًا لبعض مكوّنات المجتمع، وبعض هياكله ومؤسساته. مـن هنا، نقرّ بأنّ التدبيـر اللغوي في ضـوء العدالة اللغوية لا يعنـي التفريط باللغة المشتركة التي يفترض أن تتقبّلها الأوسـاط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

بناء على ذلك، تعمد السياسـة اللغوية إلـى وضع برامج، أو مشاريع وقوانين، للغات المجتمع حتى لا ترتقي، أو تتطور، إحداها على حسـاب الأخريات. ويضاف إلى هـذا أنّ المجتمع المتعدّد اللغات يحتاج إلـى تحديد العلاقة بين اللغـات المُتكلَّمة فيه، أي اللغة المشتركة والرسمية والوطنية ولهجات ولغات أجنبية أخرى.

كما تهدف السياسـة اللغوية إلى تكوين الواقع اللغوي بصورة تلائم الحضارة الحديثة والنظم الجديدة، والتخطيط لبناء العلاقات المنشودة في الدولة وعلاقاتها بالعالم وبالآخر. ويكون من أهدافها تقليل التناقضات، وتيسـير الاتصال والتواصل داخل الدولة أو بين المجموعات اللغوية. ولا شكّ في أنّ هذه السياسة سترسّخ العدالة بين الجماعات اللغوية المختلفـة، وتحدّ من اختلافاتها وصراعاتها قبل أن توجد، وحتى إن وجدت. كما أنها تهدف إلى استخدام لغتين أو أكثر بالمسـاواة في جميع المجـالات، أو اقتصار ذلك على لغة محدّدة. ويكون هذا التحديد واضحًا بنصوص قانونية تحدد للغة ما

استخدامها، مثلًا في المجالات الدينية والعسكرية والإدارية[105].

هناك تفرقة في كتابات معاصرة بين السياسة اللغوية الصريحة والمعلنة والمقررة في نصوص الدستور والقوانين والتشريعات الأخرى من جانب، والسياسة اللغوية غير الصريحة وغير المعلنة من جانب آخر، ولكنها هي الأمر الواقع في الدولة. وقد تكون مهمّة السياسة اللغوية صعبة ومعقّدة عندما يتعلق الأمر بالمجتمعات التي يكثر فيها التعدّد اللغوي، مثل دول القارة الأفريقية التي يوجد فيها بين 1250 و2100 لغة ولهجة، ما تطلّب تدخّل منظمة اليونسكو في المؤتمر الدولي للسياسة اللغوية في أفريقيا الذي عُقد في هراري بزمبابوي بين 17 و21 آذار/ مارس 1997. فعلى سبيل المثال، نلاحظ عدد اللغات الموجودة في الدول الأفريقية في الجدول الآتي:

الجدول (١)

عدد اللغات في الدول الأفريقية

البلد	عدد السكان (بالملايين)	عدد اللغات
نيجيريا	١٠٥	٤١٠
تنزانيا	٢٨	١٢٠
بوركينافاسو	٩	٦٠
بنين	٣	٥٨

(105) محمود فهمي حجازي، «اتجاهات السياسة اللغوية،» مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد 8 (كانون الأول/ ديسمبر 2008)، ص 32.

أمّا في مــا يخصّ العالــم العربــي فتقف شــعوبه على عتبة المجهــول، لأنّ أكثــر أفراده لــم يع بعدُ مــا اللغة، ومــا وظيفتها وما مكانتها بين اللغــات، وعندما لا تدرك المخاطــر والتحدّيات الجيوسياســية ومخططــات العولمة فــي ظل تســابق محموم من أجل هيمنة لغة على أخــرى، وعندما تتداخل السياســة بالاقتصاد وبالتجارة وإنتاج المعرفة، يصبح للغة الدور الرئيس في لعبة الهيمنة الاقتصادية، وعلى الدولة أن تدركه وترسّخه في عقول الناشئة.

لذلك ظلّ الســؤال الذي ينبغي أن يُطرح متعلّقًا بمدى نجاح حكومات الدول العربية في سياستها اللغوية، ومدى انعكاس ذلك على حياة الأمّة من النواحي الاجتماعية والسياســية والاقتصادية، وفي اســتتباب الأمن اللغــوي والفكري، وفي تراجــع الصراعات العرقية واللغويــة والإثنية التي تنخر المجتمــع، فلا تدعه يتقدم أو ينال نصيبه من التنمية.

ربما يدعونا ســلف إلى القول إن إشــكال التعدّد اللغوي برز إلى الواجهة الاجتماعية والسياســية للمجتمعات العربية، خصوصًا في المجتمعات المغاربية، وبات يتطلب معالجة متأنية واستراتيجيا متزنة، من منطلق سياســات لغوية خاصة بكلّ بلد وفق خصوصيته وبنيته وتكوينه العرقي. وإذا لم تجرِ دراســة الأمر، فإنّ الإشــكال سيزداد تعقيدًا مستقبلًا بسبب الاختلالات التي باتت تبرز في الفكر الاجتماعي للإنســان العربي عمومًا، ولا ســيما فــي ظلّ الأحادية القطبيــة والعولمــة وهيمنة اللغــة الإنكليزية علــى أغلب مناحي التطورات التكنولوجية الاتصالية والاقتصادية. ولا يمكن تنفيذ تلك

السياسة اللغوية على أرض الواقع إلّا بما يُعرف بالتخطيط اللغوي، من منطلق أنهـا مجموعة من الاختيارات الواعيـة المرتبطة بطبيعة اللغة/ اللغات في علاقتها بالمجتمع[106].

يرتبط التخطيط اللغوي بسياسـة الدولة الرسمية، ويقوم على أسس علمية إجرائية تسمح بتسـيير التنوّع اللغوي وحلّ مشكلاته، انطلاقًا من مبادئ توافقية مبنية على مسـح ميداني للواقع اللغوي، وهي مرتكزات تسوّغ الحديث عن عدالة لغوية تعيشها المجتمعات المتعددة اللغات.

وبذلك يكون التخطيط اللغوي الذي يعدّ ضرورة معاصرة من جهة، ومن جهة أخرى ضرورة قومية ووطنية للحفاظ على سـلامة اللغة العربية، ويكون الدعم للمؤسسـات العاملـة عليها وتقديرها للغة في حد ذاتها[107]، ولتعايشـها بتسـامح ووفق عدالة لغوية مع لغات الجِوار.

تعود الأهمية التي يكتسـيها التخطيط اللغوي، منذ ظهوره إلى حيّز الممارسـة العلمية(*) ضمن علم الاجتماع اللغوي، إلى أن من

---

(106) لويس جان كالفي، علم الاجتماع اللغوي، ترجمة محمد يحياتن (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2006)، ص 112.

(107) صالح بلعيد، المازيغية في خطر (الجزائر: منشـورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري بتيزي وزو، 2011)، ص 270.

(*) يعـود توظيف المصطلح إلى العالِـم فايرايـخ (Weireich) حينما ظهر عنوانًا لندوة عُقـدت في جامعة كولومبيا في عام 1957. وأول مـن كتب فيه بطريقة علمية هو العالم هوغن (Haugen)، إذ نشر مقالة في عام 1959، وسمها بـ «تخطيط اللغة المعيارية في النرويـج الحديث»، وتوالت بعد ذلك الدراسـات في الموضـوع، وأخذ مكانته في الدراسـات اللغوية الاجتماعية. وهذا لا يعني أنه لم يمارس قبـل هذا التاريخ، وإنما لم يتحدد إطاره المرجعي بوصفه تخصصًا قائمًا بذاته.

أهم أهدافه الرئيســة إبــراز دور اللغة في بناء الــدول في مراحل ما بعد الاســتعمار. إذ انصبّت أبحاثه على تقصي ومعالجة المشكلات اللغوية الناجمة عــن طمس الهوية اللغويــة والقومية لبعض الدول المســتعمَرة، ومن ثمّ اتّجه جهد الدارســين وتركّزت أعمالهم على إيجاد السبل الكفيلة لحلّ هذه المعضلات اللغوية[108]. يعرّفه إريك ويستاين (E. Weistein) بأنّه «مصطلح حكومي سلطوي طويل المدى بوصفه جهدًا واعيًا لتغيير اللغة ذاتها، أو لتعديل وظائفها في المجتمع بهدف حلّ مشكلات الاتصال والتواصل بين الأفـراد»[109].

ومن المصطلحات التي أُعطيت لهذا المفهوم مصطلح التهيئة اللغويــة (Aménagement linguistique)، «وهو المصطلح المســتعمل في المجال الفرانكوفوني منذ [عــام] 1970، ويعني تدخّل الدولة لحماية اللغة والدفاع عنها تجاه لغة أخرى منافســة، كما هو الحال في مقاطعة كيبيك الناطقة بالفرنســية التي توجــد جغرافيًا وثقافيًا داخل المحيط الأنغلوفوني الكندي، وبجــوار العملاق الأمريكي، مع ما تمثّله لغته بحمولتها العلميــة والفنّية والتكنولوجية من ثقل، والتي أصبحت مفتاح الاقتراب من العولمة، بل هي العولمة نفسها، ومع أخذ الفارق التاريخي والانتماء الثقافي بعين الاعتبار، فإن هناك

---

(108) فواز عبد الحق الزبــون، «دور التخطيط اللغوي في خدمــة اللغة العربية والنهوض بها،» مجلــة مجمع اللغة العربيــة الأردني (تشــرين الأول/ نوفمبر 2009)، ص 86.

(109) عبد الفتاح عفيفي، علــم الاجتماع اللغوي (الجزائر: المؤسســة الوطنية للنشر، [د. ت])، ص 166.

شبهًا بين حالة كيبيك والفضاء المغاربي، وخصوصًا الجزائر»[110].

«تكمن أهمية الموضوع في أنّه حديث الساعة؛ حيث يبحث في تخطيط تأصيل الوحدة الاجتماعية الوطنية، في الوقت الذي يقع فيه الاهتمام عالميًا بما وراء امتلاك المعرفة العلمية باللغات الوطنية، والذي يتزامن كذلك والمطالبة الضارية بالحقوق اللغوية للمواطن والأقليات»[111].

معنى ذلك أنّ التخطيط اللغوي هو اتخاذ جملة تدابير بغية الوصول إلى تحقيق أهداف مسطرة سلفًا، بالاستعانة بوسائل مرسومة[112]. وهو بهذا لا يختلف عن أي تخطيط اقتصادي أو اجتماعي، من حيث إنه فعل واعٍ، له أهداف محددة، ويُبتغى الوصول إليها بتبنّي مجموعة من التدابير والوسائل المعيّنة. وازدادت أهميته في الفترة الأخيرة بفعل تنامي المطالبة بالحقوق اللغوية، خصوصًا من لدن الأقليات، وبذلك اتّجهت ممارسة التخطيط اللغوي إلى المأسسة، فأصبحت تتكفل به مؤسسات رسمية مخوّلة بقوة القانون، بإجراء عملياته. ونظرًا إلى كونه تخصصًا بينيًا (Interdisciplinaire)، فإنه تتكامل في إطاره مجموعة من المعارف المتقاطعة كاللسانيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والسياسة وعلوم التربية والاقتصاد.

---

(110) محمد العربي ولد خليفة، في: أهمية التخطيط اللغوي - أهدافه ووظائفه (الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2011)، ص 9.

(111) صالح بلعيد، «التخطيط اللغوي الضرورة المعاصرة،» في: أهمية التخطيط اللغوي - أهدافه ووظائفه، ص 241.

(112) بلعيد، المازيغية في خطر، ص 271.

انطلاقًا من كون المهمّة الموكلة إلى المخططين اللغويين هي العمل على تحقيق ما يمكن وسمه بالإصلاح اللغوي، فإن دورهم ينحصر في وضع الخطط الكفيلة بتحقيق العدالة اللغوية، وعرضها على قادة الرأي ورجـــال الدولة بهدف وضعها موضع التنفيذ. وكي يتســنى لهم ذلك، عليهم أن يضعوا نصب أعينهــم مصلحة الدولة واســتقرارها، وأن يدركوا أن أعمالهم ســتترتب عليها آثار إيجابية أو ســلبية في علاقات المواطنيــن بالدولة، فإذا مــا التزموا بوضع خطط عقلانية سيؤدي حتمًا إلى تنقية الأجواء وإزالة أسباب التوتر الاجتماعي، ما ســيكون له دور ملموس في وتيــرة التنمية، الأمر الذي يعني أن يتجنب واضعو المخطط اللغوي الشوفينية والأدلجة في مفهومها السلبي.

يحفظ لنا التاريخ نماذج ســلبية كثيرة للتخطيط اللغوي الذي سُخِّر فيه العلم لأغراض سياسية مشــبوهة، وكانت مخالِفة لمنطق الأمور فــي كثير من الــدول، كالتخطيط الإمبريالي الاســتعماري الذي كان من نتاجه قمع اللغات الوطنية، ووضع خطط تعمل على الإدماج القســري لشعوب المســتعمرات في لغة المستعمِر بهدف تذويب الهويات الوطنية، كما حدث في الجزائر على سبيل المثال. ومن أمثلة التخطيط المؤدلج ما يُعــرف بالتخطيط القومي في دول ما بعد الاستعمار الذي حاول تخطّي الواقع اللغوي الفعلي السائد بعمله على استيعاب الشــعوب الأصلية والإثنيات القومية في اللغة الرســمية المتبناة، وطنية أكانت هذه اللغة أم لغة المستعمِر السابق، كما حدث في أفريقيا وآســيا، وحتى في أوروبا التي تبنّت فيها في

وقت من الأوقــات بعض الــدول المركزية اللغويــة، ولم تعترف بلغات الهامش، مثل فرنسا وإسبانيا، وكما هو حاصل حاليًا في دول البلقان وجمهوريات أوروبا الشرقية.

جدير بالذكــر أن هذا النوع من التخطيط لقي مقاومة شــديدة نظرًا إلى منافاته مبادئ العدالة الاجتماعية المنشودة عمومًا واللغوية خصوصًا، وأدى إلى نشوء حراك لغوي في بلدان كثيرة، كما في حالة المغرب العربي، موضوع هذه الدراســة؛ إذ لم تكُفّ المجموعات اللغوية التي أحســت بالضيم اللغوي عن المطالبة بحقوقها على مرّ الزمن. وكانت المطالب اللغوية في أحايين كثيرة.ســببًا في نشــوب نزاعات إثنية انتهت بتقســيم الــدول، مثل دول البلقــان والاتحاد السوفياتي سابقًا، وفي بعض دول أوروبا الشرقية، وفي مناطق أخرى من العالــم. فالعمل على تحقيــق الإدماج القســري للمجموعات اللغوية ورفض الوحدة في إطــار التنوع، يؤدي إلى انبعاث الهويات القومية، وتنامي النزعة الانفصالية، وازدياد درجة المد التحرري.

في المقابل، فإن تبنّي سياســة لغوية راشــدة تأخذ بالحسبان المعطــى اللغوي المتعــدد، وتعمل على احتوائــه بتخطيط علمي قوامــه الاعتراف والتجســيد علــى أرض الواقع بوســاطة برامج وخطط، يجعل المرء يشعر من خلالها بتحقُّق مواطنته التي أساسها احترام الهوية اللغوية، الأمر الذي تكــون نتيجته النهائية قيام دولة مستقرة اجتماعيًا.

لنا أن نمثّل لذلك بالنموذج السويســري الذي يُعدّ خير مجسّد للعدالة اللغوية، حيث تتعايش أربع مجموعات لغوية في رقعة جغرافية

صغيرة في وئام تام. وأمّا النموذج الثاني فيتمثّل في أفريقيا التي مزقتها الحروب الإثنية وحملات الإبادة العرقية ذات المنشأ اللغوي في كثير منها. ولا نحاول بهذا الطرح أن نختزل جميع المشكلات المجتمعية بتنوعها وتعقدها في المسألة اللغوية، وإنما غرضنا تبيان أهمية العامل اللغوي في مثل هذه القضايا، ومن ثم ينبغي لنا إعادة صوغ الأسئلة الكبرى التي تؤرق الوعي الجمعي للأمم.

إن الدور المحوري الذي تقوم به اللغة في الحياة الاجتماعية وقيمتها باعتبارها وسيلة من الوسائل التي توصل إلى أعلى مراكز السلطة والتأثير، فضلًا عن قيمتها الرمزية في تكوين النخب الاجتماعية (الإنتليجنسيا) وفي تثبيت الهوية العرقية، يوفّر للمتكلّمين والمجموعات اللغوية والسياسية جوًّا ملائمًا وأحوالًا ملائمة لإنجاح تخطيطهم اللغوي الذي لا شكّ في أن العدالة اللغوية ستكون من نتائجه المثمرة، وهو ما سيؤدي إلى حلّ كثير من المشكلات ذات المنشأ اللغوي في المجتمع.

سادسًا: الوضع اللغوي في المجتمعات المغاربية

انطلاقًا ممّا تقدّم، سنقارب مسألة العدالة اللغوية في المجتمع المغاربي، متّخذين من الإحداثية التي تعرّضنا لها أعلاه، ووفق رؤية اجتماعية لغوية يكون جوهرها توضيح المسألة من منطلق ارتباطها بتحقيق جانب من جوانب العدالة الاجتماعية في هذه البلدان. خصوصًا أنّه برزت في العقود الأخيرة مناقشات وسجالات بشأن الوضع اللغوي في بلدان المغرب العربي، تحديدًا في الجزائر والمغرب، وازداد الجدال بمستوياته المختلفة بعد الانفتاح

الديمقراطي الــذي عرفاه، إذ فيهمــا مجموعتان لغويتــان: عربية وأمازيغية، تُضاف إليهما لغة المستعمِر المهيمنة فعليًا على المشهد العام، وعلى كثير من المؤسّسات ذات التأثير البيّن في حياة الأفراد.

يعترف الدســتور الحالي في الجزائر والمغرب برسمية اللغة العربية ووطنية اللغــة الأمازيغية. وفي الجزائر تشــرف على اللغة العربية هيئتان تابعتان لرئاســة الجمهوريــة: المجلس الأعلى للغة العربية والمجمع الجزائــري للغة العربية. أمّا فــي المغرب فنجد مكتب تنسيق للتعريب.

يشار إلى أن دســتور الجزائر يمنح الأمازيغية حقّ الوجود في مؤسّسات الدولة الرسمية كالإعلام والتعليم، وتسهر على تعميمها وترقيتها هيئة استشارية تعرف بـ «المحافظة السامية للغة الأمازيغية» تابعة لأعلى مؤسّســة في الجمهورية ممثّلة في الرئاســة. بينما أقر دستور الثانية رسمية هذه اللغة، ويشرف على شؤونها «معهد ملكي للثقافة الأمازيغية»، إضافة إلى العشرات من الجمعيات والمنظّمات غير الحكومية الناشطة في البلدين لتعميم استعمالها.

على الرغم من الجهــد الذي بُذل من أجــل تعريب الإدارة والقضــاء والتعليم والمؤسســات الاقتصادية، فإن اللغة الفرنســية بقيت هي اللغة المهيمنة في الوسط الاجتماعي. وأمّا الصراع الذي برز بين العربية والأمازيغية فلم يُذكر عبر التاريخ، بل يصف جورج مارسيه(*) (G. Marçais) العلاقــة بين العربيــة والأمازيغيــة بعد الفتــح

(*) جورج مارسيه: من كبار مستشرقي فرنسا الاستعمارية وخريج مدرسة الجزائر الاستشراقية الاستعمارية.

العربي الإسلامي بقوله: «نلاحظ أولًا أن اللغة العربية لم تلغ اللغة البربرية [...] فهـذه اللغة لا تزال باقية حتى يومنـا هذا [...] ومع ذلك إذا كانت لغة المتنصرين لم تبعد اللهجات القديمة للسـكان، فقد وجّهت الضربة القاضية إلى اللغة اللاتينية وحلت محلها»[113]. والحقيقة أنّ الصراع ما كان ليأخذ هذا المنحى الهوياتي السياسوي إلّا بفعل لوبيات [جماعات ضغط] تسعى إلى إبقاء هيمنة الفرنسية على العقول وفي أروقة الدولة.

أمّا إذا كان هناك من يرى أنّ هذه المطالب تندرج ضمن سياق عربيّ ودولي متميّز عرف تحوّلًا عن أنظمة قومية شـمولية فرضت أحاديتها على جميع مناحي الحيـاة، وأصبحت تعيش اليوم مناخًا تعدّديًا يقرّ التنوّع والاختلاف، فلا شكّ في أننا وجدنا أنظمة الدول المغاربية تتأقلم مع هذا الواقع الجديد وتتكيّف أيضًا مع ما تصدره الهيئات الدولية من قوانين ومواثيق، وتتعامل معه بموضوعية بتبنّي سياسـة لغوية مغايرة لما كان سـائدًا، وذلك بمعالجة قضايا هذه اللغة الحاضرة فـي التواصل اليومي في الجزائـر والمغرب[114]، فأُدخلت في وسائل التعليم وفي وسائل الإعلام المختلفة. كما لم يُحرم الناطق بالأمازيغية البتة مـن التواصل بلغته. وبالتالي، فإن ما وقع من مزايدات كثيرة في هذا الشأن كان لأغلبها خلفيات سياسية لا لغوية.

---

(113) جورج مارسـيه، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشـرق الإسـلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1991)، ص 46.

(114) Salem Chaker, «La Question berbère dans le Maghreb contemporain: Eléments de compréhension et de prospective,» *Diplomatie – Magazine*, no. 3 (mai - juin 2003), p. 75.

سابعًا: تمظهرات العدالة اللغوية في الفضاء السوسيو - ثقافي المغاربي

قبل التطرق إلى المسألة اللغوية في المجتمعات المغاربية في وضعها الحالي، من المفيد إلقاء نظـرة تاريخية على الحالة اللغوية في محطاتها الحاسـمة، والتذكير بذلك الماضي على نحو موجز، ونقصد بها حالة ما قبل الاحتلال وفي أثنائه وبعده.

الجزائر هـي البلد المغاربي الأوّل الذي تعـرّض لعدوان دمّر كيانه وما زال يعاني بسببه إلى اليوم، إذ حلّ جميع مؤسساته، وجعل منه ملحقة استيطانية، بعد أن قرّرت فرنسا، في أقلّ من ستّ سنوات بعد الاحتلال بمرسوم صدر في عام 1838، أنّ العربية لغة أجنبية، وجعلت اللغة الفرنسية لغة رسمية، وهي لغة الأقلية من المستوطنين، وفرضت استعمالها منفردة في الإدارة والتعليم والإعلام. ولاستبعاد الفصحى من التداول، عملت على تعليم العاميات إلى جانب نظام المدرسة المخصّص لشؤون الدِّين والوظائف الدنيا(*).

كما حرصت السياسة الاستعمارية الاسـتيطانية في الجزائر على جعـل المجتمع الجزائري يعيش انشـطارًا دائمًا كي لا يعرف الانصهـار، وعملت علـى اختـراق هـذه المكوّنات بالفرنسـية بوصفهـا لغـة وثقافـة، وبالفرانكوفونية اقتصـادًا وسياسـة[115].

(*) نظام تعليمي استعماري كان القصد منه تكوين وسطاء جزائريين بين الإدارة الاستعمارية والأهالي بإنشاء ثلاث مدارس عربية في تلمسان والمدية وقسنطينة.

(115) توفيـق المديني، اتحاد المغـرب العربي بين الإحياء والتأجيل: دراسـة تاريخية سياسية (دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2006)، ص 75.

ولــولا جهــد الزوايــا والكتاتيــب التي كانــت عبارة عــن قلاع أو مخابــئ للإســلام والعربيــة، ثــمّ نضــالات الحركــة الوطنية المختلفــة، لما بقــي في الجزائــر ســوى عاميات مشــوّهة[116].

غير أن اللغة العربية اســتعادت بعد استقلال الجزائر عددًا من مواقعهــا الطبيعية، فأصبحــت لغة التعليم في جميــع مراحل نظام التربية والتكوين وبعض الكلّيات، وهي اللغة الرســمية الوحيدة في مجلســي البرلمان وفي القضاء، وبدرجة أقلّ فــي الإدارة العمومية حيث تُرفق بالفرنســية، أو تتفرد بها أحيانًا (أمّا في الإدارة الخاصة، مثل المؤسســات الاقتصاديــة، فهي قليلة الاســتخدام جدًا مقارنة بالفرنســية). وأمّا في الوسط الاجتماعي فالفرنســية أكثر استعمالًا بين البرجوازية الناشئة التي ترى أنها علامة تميّز وحظوة، فضلًا عمّا توفّره من مكاسب ومواقع[117].

هذا الوصف لا يختلف عن المغــرب وعن تونس وموريتانيا. ويمكن وصف الخريطة التقريبية للواقع اللساني الراهن في الجزائر على النحو الآتي:

- عربية فصحى اقترنــت بالقرآن الكريــم، وكانت في عهد الظلام الكولونيالي آلية دفاعية ضد الأجنبي المتسلّط، ومن أسس الهوية العربية الإســلامية التي تميّز الجزائريين من المســتوطنين الأجانب.

(116) ولد خليفة، ص 9-10.
(117) ولد خليفة، ص 10.

- لهجات دارجة منطوقة بفوارق بسيطة في اللّهجات المحلّية، ترجع جذور أغلبها إلى العربية مع تسرّب كلمات إليها وتعابير بالفرنسية، وترتبط بالدرجة الأولى بألفاظ الحضارة، خصوصًا على الشريط الساحلي.

- لغة أمازيغية بلهجات عدة أقرب إلى العربية في قاموسها، خصوصًا ما يتعلق بالعبادات، وهناك اليوم جدل في شأن الحرف الذي تكتب به بعد أن كان المخطوط منها كلّه بالحروف العربية.

- لغة فرنسية مستعملة على نطاق واسع بين النخبة والتكنوقراط وبعض أسلاك الإدارة العمومية في كثير من مستوياتها وفئات من المثقفين والبرجوازيات الناشئة[118].

أمّا تونس فتعرّضت بدورها لانتهاك سيادتها الوطنية، وفُرضت عليها الحماية ظلمًا وعدوانًا في عام 1881، وحصلت على استقلالها في عام 1956، بعد أن أغرقتها فرنسا الكولونيالية في الفقر والتجهيل، ولكن بقي في تونس كيان صوري للدولة إلى جانب جامعتها الشهيرة الزيتونة التي حافظت على الدِّين والعربية الفصحى وثقافتها، وكان لها دور في الحركة الوطنية حتّى خمسينيات القرن الماضي.

كما تعرّض المغرب بدوره في عام 1912 لحماية انتهت في عام 1956، حين نال استقلاله. وأخضعته فرنسا لحماية ظالمة

(118) ولد خليفة، ص 10-11.

وسلبت خيراته، بل سعت عن طريق الظهير البربري، أو ما يُعرف بمشروع ليوتي، إلى بثّ الفتنة بين الأمازيغ وغيرهم، وهو ما فعلته أيضا الأيديولوجيا الكولونيالية منذ منتصف القرن التاسع عشر في الجزائر. لكن بقاء الهيكل الأساس للدولة المغربية وإدارتها أو المخزن وجامعة القرويين التاريخية التي حافظت عمومًا على اللغة العربية الفصحى، وإلى حدّ ما العامية أو المنطوقة، وإن لم تنجُ نسبيًّا من التلوّث[119].

أمّا بعد الاستقلال فكوّنت المطالب اللغوية معلمًا بارزًا للتطورات الحاصلة في المجتمعٍ المغاربي، وهي تتمثّل في ما قبل دسترة الأمازيغية وما بعدها في كلٍّ من الجزائر والمغرب.

تتميّز المحطة الأولى بقيام الدولة القومية مباشرة بعد الاستقلال، وكُرّست اللغة العربية بوصفها لغة رسمية في دستوري البلدين، فدستور عام 1963 في الجزائر يؤكد البُعد القومي عبر الديباجة التي تكررت فيها الإشارة إلى القومية العربية في أكثر من موضع، وفي المادة الخامسة التي تنص على أن «اللغة العربية هي اللغة القومية والرسمية للدولة»[120].

كان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على الخيارات اللغوية، وهو ما ترتب عليه النضال من أجل القضية الأمازيغية متجسّدًا في سلسلة من المطالب والاحتجاجات التي خرجت إلى العلن في صورة صدامات

---

(119) ولد خليفة، ص 12.

(120) الأمانة العامة للحكومة، دستور الجزائر لعام 1963، على الرابط:
<http://www.el-mouradia.dz/arabe/symbole/textes/constitution63.htm>.

مع السلطة على مدار عقود طويلة(*). وحملت لواء هذا المسار النخبة المثقفة ثقافة فرانكوفونية أضحت رموزًا - خصوصًا في منطقة القبائل - كالأديب مولود معمري. وأرجع سالم شاكر(**) سبب تميّز منطقة القبائل في الجزائر خصوصًا والمغرب الكبير - على حدّ تعبيره - عمومًا بتبنّيها المطلب الأمازيغي دون غيرها، إلى حالة التثاقف مع الثقافة الفرنسية، إذ إنها المنطقة الوحيدة التي تمتلك نخبة فرانكوفونية كبيرة منذ بداية القرن العشرين، حين كانت نسبة التمدرس كبيرة مقارنة بمناطق البلاد الأخرى، ومست جميع الشرائح، حتى النساء منها، وكذا سكان الريف، والتأثير الفرنسي حتى في الأميين، كما أرجعه إلى قِدم الممارسة السياسية ورسوخها عبر الهجرة الجماعية المكثفة إلى فرنسا، ما أدى إلى تبلور الوعي بالبُعد الهوياتي الأمازيغي»[121]. ويقول في موضع آخر، مؤكدًا هذا المعنى: «بديهي أن يتعلق الأمر هنا بالآثار المباشرة لإنتاج وترويج معرفة علمية بالمغرب الكبير من طرف الجامعة الفرنسية [...] اكتشف الأمازيغي بغتة أن عروبة وإسلام المغرب هي معطيات تاريخية متأخرة [...] وأنه يمكن اعتبار لغته بمثابة اللغة الأصلية الوحيدة بالمغرب الكبير»[122].

(*) منها حالة تمرد في منطقة القبائل في عام 1963 بقيادة حسين آيت أحمد، والربيع الأمازيغي في نيسان/ أبريل 1980، والإضراب عن الدراسة في عام 1991، وتكرر الإضراب في الموسم المدرسي 1994-1995، ومواجهات في عام 1998 بعد اغتيال جماعات إرهابية المغني معطوب الوناس، وفي عام 2001 في ما عُرف بالربيع الأسود.

(**) باحث لساني جزائري قبائلي الأصل مقيم بفرنسا.

(121) Salem Chaker, «Les Berbères dans le Maghreb contemporain: Entre tensions et évolutions,» *Afkar/idées* (Revue trimestrielle pour le dialogue entre le Maghreb, l'Espagne et l'Europe) (hiver 2005), p. 42.

(122) سالم شاكر، **الأمازيغيون اليوم**، ترجمة عبد الله زارو (المغرب: مؤسسة تاوالت للثقافة الأمازيغية، [د. ت])، ص 23.

لا شــكّ في أنّه يقصد أن الأمازيغي لم يكتشف ذاته المتأصّلة في التاريخ إلّا بالوجود الفرنسي. وفي حقيقة الأمر، يعدّ هذا الطرح قدحًا في الهوية الأمازيغية لا إطراء لها، حيث إن كُتّاب المدرســة الاستشراقية الفرنســية لم يريدوا تمكين الأمازيغي من معرفة علمية تعرفه ذاته، بل أرادوا تفرقة أبنــاء الوطن. من جهة أخرى هو اتّجاه سياسي تاريخي عُرف منذ نشأته بتبنّيه النزعة الأمازيغية في الجزائر بمساندة من فرنســا التي دعّمت الدعوة البربرية في عام 1949 من أجل التصــدّي للحركة الوطنية، ثــمّ للثورة التحريريــة الجزائرية، وأنشــأت الأكاديمية البربرية فــي باريس في عــام 1967[123]، ما دفع كثيرًا من الإعلاميــن والمفكرين العرب إلى الوقوف أمام هذه القضايا وإسالة الكثير من الحبر فيها[124].

لذا، كان الخطاب الأمازيغي في محطته الأولى متّسمًا بالسجال الحادّ، ومتحاملًا على مســألة العربية والتعريب والعروبة، إلى درجة رفض متطرفيه النخبويين الفرانكوفونيي الثقافة هذه المسألة، فأخذت بُعدًا إعلاميًا، ونحت منحى سياســويًّا، ووجدت طريقها إلى برامج الأحزاب السياســية[*] وحــركات المجتمع المدنــي. وركزت هذه الكتابات على حالة التهميش والإقصاء التي تعرضت لها الأمازيغية، فطغت فيهــا مقــولات العنف والاجتثــاث والاســتئصال والدمج

(123) المديني، ص 94.

(124) للاطلاع على مثل هذه القضايا مثلًا راجــع: يحي أبو زكريا، «البربر، هل يحقّقون حلم فرنسا القديم؟» صحيفة اللواء اللبنانية، 2005/ 9/ 23.

(*) نخص بالذكر هنا حزبــي جبهة القوى الاشــتراكية (FFS) والتجمع من أجل الثقافة والديمقراطية (RCD).

القسري، وغيرها من النّعوت التي تحمل شحنات عاطفية حادّة.

لكن الوضع اللغوي بدأ يشهد انفراجًا منذ حوادث تشرين الأول/ أكتوبر 1988، إذ أتاح المناخ الديمقراطي الذي عرفته البلاد بخروج المطالب اللغوية وغيرها إلى العلن، وتعزّزت هذه المطالب بالاعتراف الرسمي باللغة الأمازيغية لغة وطنية في النص الدستوري لعام 2002 في نسخته المعدلة: «اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية، وتمازيغت هي كذلك لغة وطنية، تعمل الدولة على ترقيتها وتطويرها بكل تنوعاتها اللسانية المستعملة عبر التراب الوطني»[125]، وإن كانت الإشارة في ديباجة الدساتير المتتالية من عام 1989 إلى عام 1996 إلى المكوّن الأمازيغي بوصفه ثابتًا من ثوابت الهوية الجزائرية.

يمكن المراقب المحايد أن يرى المكاسب التي تحققت؛ فبعد الدسترة، عرفت الأمازيغية طريقها إلى المأسسة، ففُتحت أمامها المدارس، فضلًا عن قطاع الإعلام بفتح قنوات إذاعية وطنية وجهوية، وقناة فضائية، وكذا الجرائد، والإنتاج السينمائي، وسُمح بتقديم المداخلات والمحاضرات بالأمازيغية في الجامعات ومحافل أخرى، إضافة إلى لافتات الشوارع والمحلات التجارية والطرق في المناطق ذات الكثافة السكانية الأمازيغية، وهو ما يتعلّق بمبدأ الجهوية اللسانية الذي بدأ يتحقّق.

أمّا في المغرب، فانطلق نضال الحركة الأمازيغية في نهاية

---

(125) الأمانة العامة للحكومة، دستور 2002 (الجزائر: الجريدة الرسمية، الرقم 63، 16/11/2008).

ســتينيات القرن الماضي، مع ظهور أول جمعية «الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي»، في حين بدأت المرحلة الثانية التي يُطلِق عليها أصحابها مرحلة الجهـر بالقضية في الفترة 1980 - 1991. ويُؤرَّخ للمرحلــة الثالثة بخطاب العاهل المغربي الراحل الحســن الثانــي في 20 آب/ أغســطس 1994، أقر فيه بتعليــم الأمازيغية، وفي عام 2001 حين ظهر المعهد الملكــي للثقافة الأمازيغية إلى الوجود[126]. وتُوّج ذلك المســار في عام 2011 باعتراف الدستور بالأمازيغية لغة رسمية ومساواتها باللغة العربية، وبتعهّد الدولة على تطويرها وترقيتها، حيث جاء في الفصل الخامس منه: «تظل العربية اللغة الرســمية للدولة، وتعمــل على حمايتهــا وتطويرها، وتنمية استعمالها. تعد الأمازيغية أيضًا لغة رسمية للدولة باعتبارها رصيدًا مشتركًا لجميع المغاربة دون استثناء»[127]. وهنا نلحظ أن الدستور المغربي يؤكّد أنّ المســألة الأمازيغية ليســت حكرًا على فئة دون أخرى. وبذلك أُخرجت القضية من المزايدات السياسوية.

بناء على ما سبق، نرى أن المغرب والجزائر هما في طريقهما إلى تحقيــق العدالة اللغوية بالمســاواة الدســتورية بيــن اللغتين الوطنيتيــن، وهذا ما يؤكّده فــان باريس بأنه المســاواة الرمزية بين اللغات المتداولة، لأنّ التساوي الفعلي لا يمكن تحقيقه في الوقت الراهن، فثمة حاجة إلى تأهيل الأمازيغيــة لأداء الدور المنوط بها.

(126) عبد الحق لبيض، إعداد وتقديم، «العروبة بعيون أمازيغية: ندوة الأمازيغية هوية ثقافية أم رهان سياسي؟» مجلة الآداب (شباط/ فبراير 2005)، ص 55.

(127) الأمانة العامة للحكومة، دســتور المغرب، على الرابط: <http://www.sgg.gov.ma/arabe/Accueil.aspx>.

وأشــار إلى ذلك الدســتور المغربي صراحة بأن نــصّ على تعهّد الدولة القيام به، وورد فيــه: «يحدد قانون تنظيمــي مراحل تفعيل الطابع الرسمي للأمازيغية، وكيفية إدماجها في مجال التعليم، وفي مجالات الحياة العامة ذات الأولوية، وذلك لكي تتمكن من القيام مستقبلًا بوظيفتها بصفتها لغة رسمية»[128].

ثامنًا: جوهر الصراع اللغوي في المجتمعات المغاربية

ورثت الدول المغاربية وضعًا لغويًا بالغ التعقيد وشديد التأزم، خصوصًا في الجزائــر والمغرب، وهو حالة صــراع لغوي حقيقي بين النخب وجد صداه في الشارع بما يُنشر على صفحات الجرائد وعلى شــبكة الإنترنت وما يُبث على الهواء من أقوال عنيفة تغلّفها الأيديولوجيا، فضلًا عن ملاســنات تفتقر إلــى التأطير العلمي في أغلبها، بحيث انســاقت وراء عواطف غير مكبوحة، واســتثمرتها أطراف سياسية داخلية وخارجية.

انقسمت النخب المغاربية في شأن المسألة اللغوية إلى طوائف شتّى بحسب تكوينها المعرفي وخلفيتها الأيديولوجية. ولا شكّ في أنّ هذا التوزيع لا تتحكم به الإثنية التي ينتمي إليها هؤلاء، لأن كثيرًا من ذوي الأصول الأمازيغية في كلٍّ مــن الجزائر والمغرب رفضوا تســييس المســألة اللغوية والتوصيف الذي يقدمه مناضلو الحركة الأمازيغية. وبين هؤلاء وأولئك يقف فريق يتّسم بالاعتدال، ويرفض الإقصاء والتهميش لأي مكوّن من مكوّنات الهوية المغاربية.

---

(128) الأمانة العامة للحكومة، دستور المغرب.

لكن المسألة في جوهرها، وفي مقامها الأول، سياسية، بحسب عبد الله العروي الذي يقول: «كاذب أو منافق من يدّعي أنه يقف من مسألة الأمازيغية موقف المتفرج أو الملاحظ المتجرد أو الباحث الموضوعي، كل منا بحسب وضعه الاجتماعي وتربيته الأولية يوالي الدعوة أو يعاديها تلقائيًا [...] المسألة سياسية في الأساس قبل أن تتحول إلى قضية ثقافية أو لغوية أو تاريخية أو أخلاقية، سلاح في مسابقة بين النخب والقيادات هذا هو الجانب الذي يهمنا في هذا المقام ونضخمه عمدًا»[129].

يلقي هذا الطرح بعض الضوء على جوهر هذا الصراع النخبوي في مسألة العدالة اللغوية، فهو ظاهريًا صراع لغوي، لكنه يخفي في حقيقته صراع مصالح ومواقع سياسية واجتماعية، إذ يريد كل فريق أن يظفر بموقع متميّز ضمن المنظومة الثقافية والاجتماعية، بحيث يكون مرجعية يعتدّ بها ويحال إليها، وهذا ما نستشفّه من الحراك الاجتماعي الذي يشير إليه فؤاد بوعلي صراحة، فهو يرى أنّها وجدت في هذا الحراك فرصتها لـ «فرض أجندتها على النقاش العمومي، واستغلال اللحظة لتوجيه المطالبات الشعبية نحو فرض الأمازيغية ضمن المطالب الشعبية، وصبغ الاحتجاجات بألوان إثنية عرقية»[130]. ولم يعرف أن مطلب الأمازيغية كان شعارًا

(129) عبد الله العروي، من ديوان السياسة (بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، [2009])، ص 53.

(130) فؤاد بوعلي، «النقاش اللغوي والتعديل الدستوري في المغرب،» المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سلسلة دراسات وأوراق بحثية (كانون الثاني/ يناير 2012)، على الرابط: <http://www.dohainstitute.org/release/6b853f16-c947-4ffc-a3cf-00a21b2feb48>.

في الحركـة الشعبيـة التي عرفتهـا الجزائر في عام 1988.

كما يــرى الجابــري(*) أن شــكوى المواطنين فــي المناطق الأمازيغية في الجزائر أو المغرب لم تكن بسبب تهميش الأمازيغية أو إقصائها عن الحياة العامّة الرســمية، وإنّما كانت شــكواهم من انعدام التنمية، فالمغرب منقســم، في رأي الجميع، بين مغرب نافع وآخر مهمَّش، فهنالــك المركز وهنا الهامــش: «إذهب إلى الريف وقمم جباله والأطلس [...] واسأل ما ينقصكم؟ ما هي مطالبكم؟ وما هي مشــاكلكم أنا متأكد بأنهم سيشــتكون من ســوء الطرقات وانعدامها ومن قلة المــدارس أو بعدها... إلخ، بكل تأكيد لن نجد أي أحد يشتكي من شيء اسمه الأمازيغية»[131].

الحقيقة هي أنّ نســبة كبيرة من أبناء المغرب العربي لا تعرف هــذه اللغة البربريــة. ويرى كثير مــن المتخصصيــن والمطّلعين، ومن هم بربر بالولادة والنشــأة، أنّها متأثّرة بالعربيــة تأثّرًا واضحًا، وأغلب كلماتهــا ذو جذور عربية، إذ يقول عثمان ســعدي في هذا الصدد: «والحقيقة إنّ هذا الطابع العربي لم يشــمل فقط المفردات اللغوية؛ وإنّما يشــمل التركيب اللغوي والقواعد النحوية والصرفية والاشتقاقية أيضًا»[132].

(*) فيلسوف مغربي من أصول أمازيغية، توفي في عام 2010.

(131) محمد عابــد الجابري، حفريات فــي الذاكرة من بعيــد (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997)، ص 233-234.

(132) وهي الفكرة التي ما فتئ هذا المفكر يردّدهــا في الملتقيات والمؤتمرات العلمية، محاولًا أيضًا دحض انفصال الأمازيغية عن العربية واتصالها باللاتينية، مع العلم أنه أمازيغي شاوي من أوراس النمامشة في الجزائر. انظر: سعدي عثمان، عروبة الجزائر عبر التاريخ (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982)، ص 144.

يتبيّن لنا ممّا تقدم أنّ النخبة الأمازيغية ذات المشرب الفرانكوفوني(*) بالتحديد، بحسب التوصيف الذي قدّمه سالم شاكر للنخب القبائلية في الجزائر، وبفعل حالة التثاقف، قامت بجملة إسقاطات على المجتمعات المغاربية، منقولة عن الغرب. والأمر يتعلق هنا بالتعددية اللغوية والثقافية. وساعدتها في ذلك المتغيرات المحلية والدولية، ناسية أو متناسية التباين الجوهري بين الوضعين المغاربي والغربي. فالغرب يعيش الآن حالة ما بعد الحداثة، وأمّا هذه المجتمعات فلم تتزحزح بعدُ - على مستوى الواقع على الأقل - عن حالة ما قبل الحداثة، ما يدعونا إلى التأكيد أنه من الخطأ اختزال جميع مشكلات المجتمع في المسألة اللغوية، فكثير من دول العالم عرفت التعددية اللغوية، وتعترف دساتيرها بالتنوع، لكنها لم تخرج من دائرة التخلف، كالسنغال ومالي وتشاد وغيرها.

إن الإشكال المطروح هو أنّ الواقع يقول: إن الغرب مرّ عبر مرحلة الدولة - الأمّة الأحادية القومية لغة وفكرًا وثقافة، وما وصل إلى مرحلة الدولة الأمة المتعددة القوميات والثقافات، أي دولة أساسها المواطنة الثقافية اللغوية، إلّا بعد أن تهيأ ونضج، وبلغ من التماسك المجتمعي ما سمح له بالانتقال السلس، واستكمل فيها بناء مؤسساته الدستورية، وتجاوز فيها مشكلات التنمية. وبعد فترة

(*) نود أن نؤكد هنا أن خطابنا ليس تعميميًا، فهناك من النخب الفرانكوفونية التي حتّمت عليها أوضاع الاستعمار أن تكون كذلك، والتي كانت ترى في الفرنسية سجنًا لها. وأمّا من نقصدهم هنا فهم الذين صارت الفرنسية عقيدة لهم وأسلوب حياة، ويُعرَفون بالفرانكوفيليين (Les Francophiles) الذين قيل عنهم: إنهم يفتحون مظلاتهم في الجزائر بسبب سقوط المطر في باريس.

تحضير طويلة أدى فيها الإعلام والمدرسة وحركات المجتمع المدني والتجارب والمستجدات الدولية دورًا كبيرًا لتهيئة هذا الانتقال من دون حدوث هزات اجتماعية. وعلى الرغم من ذلك، فإننا نشهد دومًا خروقات لهذا الإجماع القائم حول مسألة التعددية اللغوية، وآخرها ما وقع في منطقة كيبيك الكندية بعد فوز حزب كيبيك الانفصالي (Le Parti québécois) بالانتخابات التشريعية ودعوة رئيسته إلى تأليف حكومة ائتلافية، فأطلق أحد المتطرفين الناطقين بالإنكليزية النار على المحتفلين مع زعيمتهم بالفوز، فسقط قتلى وجرحى، وكان يردد خلال إطلاقه النار: «الناطقون بالإنكليزية يستيقظون»[133].

أمّا المسألة الأخرى التي تؤجّج الصراع الآن، بعد تجاوز مرحلة المساواة بين اللغات وبعد الاعتراف الدستوري بالأمازيغية، فهي صعوبات التطبيق الميداني؛ فالنخب الأمازيغية تطالب بالإسراع في تجسيد هذا الاعتراف ممارسةً فعلية في جميع الميادين الحياتية المختلفة، لكن دون ذلك معوِّقات شتى لا يمكن تخطيها، لأن اللغة «لا تخلقها القوانين، بل تخلقها قوة الاستعمال، وقوة النصوص التي تجري في دمائها، كما أن سيرورة اللغة وتحفيزها للاضطلاع ببعض الأدوار والوظائف هو [كذا] الذي يضمن لها التعبيرية الوظائفية»[134]، ما يعني أن تجاوز المساواة الرمزية إلى المساواة الفعلية يمر بمسار تدرجي طبيعي بعيدًا عن المزايدات

---

(133) عن موقع قناة فرانس 24 الناطقة بالعربية، 5/ 9/ 2012، على الرابط: <http://www.france24.com/ar>.

(134) عبد المجيد جحفة، «"ندوة" الأبعاد السياسية للإشكالية اللغوية في المنطقة المغاربية،» المستقبل العربي، العدد 253 (تموز/ يوليو 2008)، ص 153.

السياسوية، وفق رؤية علمية قوامها التخطيط اللغوي السليم المبني على أسس موضوعية، بقصد تأهيل هذه اللغة، خصوصًا أن دستور كلٍّ من الجزائر والمغرب تعهد بالعمل على تطويرها.

يُفترض أن يتوجّه البحث الآن إلى إيجاد آليات ناجعة لتعميمها، وعدم افتعال خصـــوم افتراضيين يقفـــون في طريقهـــا. كما أنّ من مصلحة الأمازيغية تجنّب الارتجال والتســـرع في تجسيد النصوص القانونية التي تكرســـها لغة وطنية ورســـمية في المجتمع المغاربي، خصوصًا أن هذه المجتمعات تمتلك مـــن التجارب ما يؤكد صحة هذه المخاوف، خصوصًا تجربة التعريب الناقص التي مرت بها وما رافقها من إخفاقات.

كما أن المساواة في المواطنة اللغوية لا تعني إلزامًا «المساواة بين اللغات، لأنّ اللغات كما يعلم الجميع تلبّي حاجات مختلفة، قد تنقص أو تزداد، ما يؤثّر عليها سلبًا، أو إيجابًا عليها وعلى استمرارها، وقـــد تتاح أو لا تتاح لها فـــرص حضارية تاريخية، مـــا يجعلها غير متساوية، بكل تأكيد، وهي غير متساوية في قدرتها التراكمية»[135].

لا نعتقـــد أن الأمازيغيـــة في وضعهـــا الراهـــن مؤهّلة لتكون لغة عالمة تســـتجيب لمتطلّبـــات العصر، ونقل حمولاتـــه العلمية والحضاريـــة والتقنية، فهي لا تمتلك ذلـــك الرصيد المعرفي الذي يؤهّلهـــا لأداء الدور الذي ســـيوكل إليها، لأنّها لا تـــزال موضوعًا

---

(135) عبد القادر الفاســـي الفهري، «الديمقراطية اللغوية المأمولة في المغرب،» جريدة هسبريس (جريدة مغربية إلكترونية)، 8/ 6/ 2011)، على الرابط: <http://hespress.com/opinions/32619.html>.

للتعليم، كما أنّها لم تنتج مفاهيم كبرى ولا سجلات لسانية واصفة توجد عادة في اللغات الراقية، مثل اللغة العربية وغيرها[136].

أمّا فـــي حالة اعتماد مبدأ الجهوية اللســـانية، فإنّ ذلك يعني أن تتبنّى كل منطقة لغتها، وفي هذا تكلفة اقتصادية كبيرة لا نظن أن في إمكان البلدان المغاربية تحمّلها. كما أنّ الوحدة في إطار التعدّد مهمّة في الجانب الحضاري من التمســـك بما يفرق ولا يجمع، فـ«التعدد اللغوي الذي يمثّل الاختيار الأمثل بالنسبة للنخبة، ينبغي تقويم كلفته الاقتصادية والثقافية والمعرفية والسياسية بالنسبة لعامة الشعـب»[137].

كما أنّ هـــذا المبـدأ، وإن يكن مغريًـــا، ليس دائمًا وســيلة لاســتتباب الأمن حيثما يطبّق، إضافة إلى أنّه تترتب عليه تعقيدات جدية في بعض الحـــالات، مثـــل: أي اللغات تمنـــح الحق، وما حدودها؟ وما موقع اللغات التـــي لا حدود لها، وما هي التكاليف التي تترتب على تطبيق هـــذا المبدأ، خصوصًا إذا كانت المجموعة اللغوية صغيرة[138].

بناء على ذلـــك، ينبغي لتحقيق الأهداف التي أنشـــئت الدولة لأجلها، «ألّا تمنح الدولة امتيازًا إلّا لعدد محدود من اللغات»[139]،

---

(136) عبد السلام خلفي، «معيرة اللغة الأمازيغية في ضوء بعض التجارب العالمية،» مجلة أسيناك (المغرب، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، العدد 3 (2009)، ص 31.

(137) الفهري، ص 73.

(138) Parijs, «Plaidoyer pour une territorialité linguistique».

(139) بريان باري، الثقافة والمســـاواة: نقد مســـاواتي للتعدديـــة الثقافية، ترجمة كمال المصري، سلسلة عالم المعرفة؛ 383 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2011)، ج 2 ، ص 259.

أو على الأقلّ تعرف لمن تعطي ذلك، حتى لا يتسبّب ذلك بحدوث صراع آخـر أو اصطـدام جديد بيـن الفئات الاجتماعيـة. فعلى سبيل المثال، إسـبانيا بلد متعدّد الألسـن وإقليم تتعايش فيه سبع مجموعات لسـانية متمايزة ومتمركزة في مناطـق جغرافية خاصّة ومحدّدة. وقد سـهّل هذا التوزيع تصميم السياسات اللسانية على أسس واضحة، فضلًا عن أنّ التعدد اللسـاني محدّد في الدستور؛ فاللغة الإسـبانية أو الكسـتالية هي اللغة الرسـمية الوحيدة على مسـتوى جميع الأقاليم، وهناك لغات كثيرة يجري التكلم بها مثل الكتالانية (Catalan) والباسـكية (Basque) أو الأوسـكيرا (Euskera) والغاليسية (Le Galicien) والأستورية (l'Asturien) والبرتغالية. وجميع هذه اللغات محمية قانونًا، وهناك لعدد منها فحسـب مكانة رسمية في بعض مناطـق الدولة، نحو الكتالانية والباسـكية والغاليسـية؛ فالمواطنون يسـتخدمونها، ولها فاعلية قانونية في علاقاتهم بجميع القوى العمومية الموجودة في تلك الأقاليم[140].

إضافة إلـى ذلك، يؤدّي مطلب المسـاواة بيـن اللغات على أساس لغتين رسميتين حتمًا إلى شراكة غير متكافئة ومخالفة لروح الديمقراطية، لأنها ستكون مساواة بين غير المتساوين طبيعيًا. ومن تبعات المسـاواة المطلقة أن تتمتع الأقلية بغطاء مؤسسـاتي مشابه لذلك الـذي تمتلكه الأغلبيـة، وبذلك تتجه الدولـة بفعل تموقع كل طرف في مؤسسـاته نحو مواطنة مشـتتة قائمة على اسـتقلال

(140) Anna M. Pla Boix, «La Protection des droits linguistiques dans les nouveaux statuts d'autonomie en Espagne,» université de Gironna, Espagne, [en ligne], <www.dialnet.unirioja.es/descarga/articulo/3199459.pdf>.

مؤسســـاتي منتج لنوع من الحصانة أو الإعفـــاء القانوني من بعض الالتزامات التي تفرضها واجبات المواطنة[141].

كما أن مبـــدأ تكافؤ الفـــرص الذي يعـــدّ مكوّنًـــا مهمًا من مكونات العدالة ســـيتيح للغات المؤهلة فرض منطقها، وبالتالي تخرج الأمازيغية من دائرة الديماغوجيا والتوظيفات السياســـوية المشـــبوهة. ومن الصعوبات الكأداء التي تقف أمام تطبيق العدالة اللغوية فـــي المجتمع المغاربي غياب اللغـــة الأمازيغية المعيارية الجامعة في وضعها الحالي، فـ «مصطلح اللغة المازيغية افتراضي، لغياب اللغة الجامعة، ولكن تبقى اللهجات البربرية لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا توارثها الخلف عن السلف»[142].

وهناك معوِّقات أخرى فـــي تطبيق العدالـــة اللغوية، فاللغات الأمازيغية تتفاوت في ما بينها في هذا الشـــأن، حيث إن الأمازيغية الشاوية أو التارقية في الجزائر لا تمتلك مؤهلات تمتلكها القبائلية لأســـباب موضوعية تاريخية واجتماعية وثقافية، تعـــود إلى طبيعة الناطقين بكل لغة ونظرتهم إليها.

قد يترتب على ذلـــك فـــرض الأمازيغية المؤهلـــة على بقية

---

(141) باتريك ســـافيدان، الدولة والتعـــدد الثقافي، ترجمة المصطفى حســـوني (المغرب: دار توبقال للنشر، 2011)، ص 70-71.

(142) صاحب هذه المقولة جزائري أمازيغي قبائلي يعرف هذه اللغة، وقد أصدر حكمه هذا بنـــاء على دراية ومعرفة، فقد ألّف الكثير من الدراســـات المتعلقة بالأمازيغية وكيفية ترقيتها، وانتقد الطروحات الهادفة إلى فصلها عن موقعها الطبيعي، وكشف عيوب النخبة المتشـــددة، إضافة إلى خدمته للغة العربية بوصفه أستاذًا لها، وعضو مجامعها في الجزائر ودمشق والقاهرة. انظر: بلعيد، المازيغية في خطر، ص 135.

المناطق، وهو توجّه قد يقابَل بالرفض، فـ «التوحيد اللغوي لن يأتي أبدًا، ولا يأتي لأنه ليس من السهولة أن تتنازل لغة/ لهجة عن فنونها لصالح لغة/ لهجة أخرى من فصيلتها، وليس سهلًا تنميط لغة ما على حساب لغة أخرى، ومن هذه الزاوية رفضت بعض المناطق المازيغية تدريس المازيغية»[143].

هنا نلحظ تصادم طموح أمازيغ المغرب العربي مع واقع مغاير. وكي يتحول إلى حقيقة ملموسة، لا بد من وجود جهد علمي - في المقام الأول - جبار لتصبح اللغة الأمازيغية لغة الحياة والمعرفة، وتسمو إلى مصاف اللغات العالمة، خصوصًا أن النصوص القانونية متوافرة والإرادة السياسية متحققة.

يضاف إلى ما سبق «صعوبة وضع نظام نحوي وصرفي موحّد للهجات متنوّعة في المبنى والتركيب والدلالة، وهي صعوبة لا يمكن تجاوزها»[144]. ففي المغرب العربي ما لا يقل عن عشر لغات أمازيغة كبرى بتفرعاتها (القبائلية، الشاوية، الشنوية، التارقية، الشلحية، الريفية، الميزابية... إلخ). وسيكون في تبنّي إحداها على حساب الأخريات ظلم لباقي المجموعات الأمازيغية، أم تُرى سيعمد القيّمون إلى القيام بعملية ترقيعية توافقية بانتقاء العناصر المشتركة بينها، أو إلى إخراج لغة مخبرية بعيدة عن حقيقة اللغات الأمازيغية، وبذلك نكون أمام إسبيرنتو (Esperanto) جديد.

كما أنّ ممّا يدخل في جوهر الصراع اللغوي أن يعمد ناشطو

---

(143) بلعيد، المازيغية في خطر، ص 60-61.

(144) المديني، ص 103.

الحركة الأمازيغية إلى المطالبة بحكم رسـمية هذه اللغة، خصوصًا في المغـرب، وبإجبارية تعلُّمها وتعليمها، مسـتندين في ذلك إلى الدسـتور الذي ينص على أن الأمازيغية شأن مشترك يخص جميع المغاربة بلا اسـتثناء، وفي هذا عنت يوجب إلزام جميع المتعلمين بلغة جديـدة لا تمتلك مقومـات اللغة المعياريـة، فعوضًا عن أن ينصرف جهدهم إلى إتقان اللغة الرسـمية الأولـى، والتحكم في لغات الانفتاح، يُقحَمـون في نظام كتابي جديـد بجميع تعقيداته، ومنظومـة قواعدية مورفولوجيـة غريبة عنهم فـي الوقت الراهن، فيحمّلون بذلك متاعب أخرى في سـن مبكرة، وفي هذا ظلم لهم ومجافاة لمبادئ العدالة اللغوية.

هذه كلّها، كما نرى، صعوبات جديـة موضوعية، تنطبق على الحالة المغاربية، نظرًا إلى تعدد اللغات الأمازيغية، ثم عامل الهجرة نحو المدن من جميـع المناطق الأمازيغية، وهو مـا يصعّب انتقاء لغة من بين أخريات، كما أن ثمة مجموعـات أمازيغية صغيرة، إذا تجاهلها المعنيون، فسيكون في ذلك مجافاة لروح العدالة اللغوية.

اللافت في هذا المقام أنّ للجزائر وضعًا خاصًا. ولا نعتقد أنّ المغرب أفلت منه أيضًا، وهو اقتـران المطالب الأمازيغية بالحركة الفرانكوفونية، منذ بداياتها الأولى، بحيث لم تسـتطع التخلّص من ترسباتها إلى اليوم. وتجلّى هذا الاقتران في معاداة كلّ ما هو عربي، وتحويل درس الأمازيغية إلى درس في الفرنسـية، وإنجاز البحوث عنهـا (الأمازيغية) بالفرنسـية. ويكفي أن يطّلع المـرء على قائمة البحوث المنجزة في قسم اللغة الأمازيغية في جامعة تيزي وزو عبر

شـبكة الإنترنت، من حيث اللغة والمضامين والإحالات، ليعلم أنّه قسم مكرر للغة الفرنسية[145]، وهذا كلّه بفعل قسم اللغات الشرقية والأكاديميـة البربرية في باريس اللذين يمارسـان نفوذهما بصورة أو بأخرى علـى نخبة الجزائر الأمازيغيـة؛ إذ تعمل هذه الفئة على تغريب الأمازيغية بالعمل على تنقيتها من كل مُقترَض عربي، وكذا بتبنّي رسم الخط اللاتيني وسـيلة لتدوينها، واتخاذ الفرنسية وسيلة لتعليمها داخل الصفوف.

يتطلّـب هـذا الأمر مـن النخـب الأمازيغيـة فـكّ ارتباطها بالفرانكوفونية، وهو ارتباط زالت مبرّرات الإبقاء عليه، ليبدو حسن النية والإخلاص لديها، فوضع الأمازيغية القانوني الآن يسـمح للناشطين بأن ينجزوا من أجلها جميع المشـاريع داخل أوطانهم في فضاء من الحريـة والعدالة لا نظير لـه، وبدعم من مؤسسـات الدولة في فرق البحث والمختبرات الجامعية بعيدًا عن جميع الشبهات والتشكيك في الصدقية، وعن تُهم العمالة للمستعمر القديم، وغيرها من الشتائم التي يفترض ألّا تبقى في الخطاب اللساني أو السياسي المغاربي.

أمّا الإبقاء على الارتباط فمن شأنه أن يوسع الهوّة بين اللغتين العربية والأمازيغية، ويسـاهم في إحداث الفُرقة بين مواطني البلد الواحد الذي يقوم أساسًـا على مبـدأي الشـراكة والجوار. وهي الملاحظة التي نعتقد أنها لا تنطبق علـى المغرب بالحدّة ذاتها؛ إذ

---

(145) لمزيد من التفصيل في هـذا الموضوع، انظر: بلعيد، في المواطنة اللغوية، الذي أتى فيه إلى جميع مظاهر الارتباط، وبيّن مخاطرها على الأمازيغية وعلى المجتمع الجزائري.

يكفي تتبّع ما تكتبه هناك النخبــة الأمازيغية بالعربية لندرك أن هناك بعض الاختلاف، وإن لم تنتفِ الظاهرة إطلاقًا. إذ تبنّى الأمازيغ في المغرب رسم خط التيفيناغ بقرار سياسي حفاظًا على استقلالية هذه اللغة، وتمييزًا لها من غيرها.

لن تخدم حالة الارتبــاط بالفرانكوفونية، وما ينجم عنها من صراع الأمازيغية ولا العربية. ولا ريب في أن الفرنســية ستكون هي الرابح الأكبر والأوحد في نهاية المطاف، وهي اللغة المهيمنة حاليًا على المشهد العام بوصفها اللغة الرسمية الفعلية التي نعتقد أنها في وضعية مريحة للاتجاه التغريبي داخل الحركة الأمازيغية، وهو ما يؤدّي إلى تكريس الفرنســية لغةً مشتركة بين الجميع بدلاً من العربية التي يفترض أن تتبوّأ المقام الذي تســتحقّه. ويعدّ هذا مفروضًا بحكم الأمر الواقــع وفقاً لمعادلة لا غالب ولا مغلوب. ونعتقد أن تجميد قانون تعميم اســتعمال اللغة العربية الذي وافق عليه المجلس الشــعبي الوطنــي (البرلمان الجزائــري) في عام 1991 يندرج في هذا الباب.

لا ريــب فــي أنّ «الوضــع اللغوي المــوروث عــن العهد الاستعماري لم يكن نتيجة تفاعل اجتماعي أو نتيجة مبادلات دولية طبيعية، وإنما هو نتيجة عمل سياسي مرسوم ومدروس، هذا الوضع الذي فرض على الجزائر بأساليب سياسية، يجب أن يجابَه بسياسة محكمة لحل معضلاته»[146].

---

(146) عبــد الحميد مهــري، أهمية وضع سياســة وطنية للغات، سلســلة دفاتر المجلس؛ 26 (الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2007)، ص 12.

من الأسئلة الملحّة في الشأن الأمازيغي، وهي تفرض حضورها على المتتبّع للوضع اللغوي المغاربي، أسئلة تتعلّق بطبيعة السياسة التي تطبّق في هذا المجال، فهل هي سياسة قطْرية أم مغاربية، مع أن الواقع يقول غير ذلك تمامًا؟ وما عواقب هذه السياسة اللغوية على الناطقين بالأمازيغية في هذه الأقطار؟

يبدو أنّ الوضع يختلف عمّا يريده المعنيون بالأمر، فقد اتجهت كل دولة إلى رسم سياستها اللغوية بمعزل عن الأخرى، وفي هذا تشتيت للجهد وهدر للطاقات والوقت والمال، الأمر الذي ستنعكس آثاره سلبًا على مستقبل الأمازيغية في بلدان المغرب العربي. فالسياسة القطْرية في تدبير شأن لغوي مشترك لن تكون مجدية لأنّها ستخلق وضعًا لغويًّا مصطنعًا ومنافيًا لطبيعة اللغة. ولنأخذ على سبيل المثال قضية رسم الخط الذي لم يُجمع عليه إلى الآن؛ فالمغرب اتخذ خياره بظهير ملكي بتبنّي رسم خط التيفيناغ الذي ارتبطت به الأمازيغية منذ القِدم. وأمّا في الجزائر فتدوّن الأمازيغية بثلاثة خطوط: العربي واللاتيني والتيفيناغ، ولم يُبت هذا الأمر إلى الآن، لدرجة أن أوراق الامتحانات مثلًا (في البكالوريا، وشهادة التعليم المتوسط) تُقدَم بالخطوط الثلاثة، وللطالب حرية الاختيار، وبالتالي، أي أمازيغية هذه التي تمنع التواصل مستقبلًا بين المتخرجين في المدرسة المغاربية؟

على الرغم من العراقة المعيارية للعربية وثراء رصيدها الفكري، فإنها تعاني عدم توحيد الجهد وتنسيقه، ما أضر بها كثيرًا، ولا تزال السياسات اللغوية القطْرية في مستوى توحيد

المصطلحات، وغيرها من المســائل اللغوية، فما بالنا بلغة نستطيع أن نقول إنّها لم تبلغ ســن الرشد، وتفتقد المعيارية. لا شك في أن الضرر سيكون أكبر؛ فعن أيّ عدالة لغوية نتحدث إذا ازدادت هذه اللغة تشرذمًا عمّا هي عليه الآن؟

لا بد من أن يدعونا هــذا إلى التحفّظ تجــاه النيات الكامنة وراء هذه السياســات، فنرى أن تلبية المطالب اللغوية لم يكن إلّا صرفًا لساكنة المغرب العربي عن المشــكلات الجوهرية العميقة التي تعانيها هذه البلدان، إن على مســتوى التنمية أو على مستوى البطالة أو الفســاد الــذي ينخر هيــاكل هذه الــدول، فضلاً عن المحسوبية والمحاباة، وفشــل جميع الخطط الاقتصادية المتبعة. نخلص إلى القــول إن العدالة اللغوية ما هــي إلّا أكذوبة ترضي الضمير(*).

(*) هو عنوان لفصل بعنوان «أكاذيب ترضي الضمير» من كتاب أصدره بريان باري (B. Barry) بعنــوان *Culture and Equality: An Egalitarism Critique of Multiculturalism*، في جزءين، وهو من منشورات كامبريدج السياسية. ترجمه كمال المصري بعنوان **الثقافة والمســاواة: نقد مســاواتي للتعددية الثقافية** ضمن سلســلة عالم المعرفة التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت في عام 2011. إنه عبارة عن نقد للطروحات التي تقدّم بها أنصار التعددية الثقافيــة، خصوصًا ما جاء به كيمليكا، في هذا الشأن، بدحض حججهم، وتبيان أنها لا تنطبق على الواقع، على الرغم من وجاهتها، وحســن نيات أصحابها، إذ يرى أن في كندا التي تعد بلدًا متعددًا ثقافيًا، ثمة مواطن من بين كل ثلاثة مواطنين يرفض التعددية الثقافية، وفق أحد الاستطلاعات، ولذا فهو يرى أنه انشغال لم يتجاوز مستوى النخب، كما يطرح حججًا أخرى عن خطورة الطرح التعددي على مســتقبل الدول- الأمم. انظر: بريان باري، **الثقافة والمساواة: نقد مساواتي للتعددية الثقافية**، ترجمة كمال المصري، سلسلة عالم المعرفة؛ 383 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2011).

تاسعًا: شركاء في وطن واحد

يشدد أغلب النصوص القانونية في بلدان المغرب العربي على المواطنة الدستورية والتساوي بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات، ومن ثمّ لا يوجد تفريق على أساس لغوي أو غيره. فالمواطن المغاربي يتمتع بحرية التنقل والإقامة والتملك والتعلم في أي منطقة من مناطق وطنه. كما تكفل له النصوص حق التعبير عن رأيه، والانخراط في أي نشاط سياسي أو ثقافي، إضافة إلى حقوق أخرى تستلزمها المواطنة.

بناء على ذلك، فإن المواطنين شركاء وجيران في أوطانهم، وبينهم عقد اجتماعي، أو عقد اتّحاد لا يلزمهم بالطاعة لأيّ كان، والشعب المتعاقد هو وحده مصدر السلطة وصاحب السيادة، وهو وحده الذي يمارسها. وهذا الحق له دون غيره، فلا يقبل الخلع ولا التجزئة، ولا يمكن التنازل عنه، فهو حقّ يجسّد السيادة.

ذلك هو العقد الاجتماعي عند روسو، وهو البند الوحيد الذي يُحتكم إليه. وتنازُل الفرد للجماعة هو ما تتكوّن منه الإرادة العامّة؛ فالمواطن عندما يهب نفسه للجميع لا يهب نفسه لأحد بعينه، فجميع المواطنين مرتبطون في حالة مساواة تامّة، ولا أحد رعية لآخر. وبما أنّ الشعب لا يريد إلاّ المصلحة العامّة، فلا بد من أن يكون التنازل لمصلحة ما يحبّه الجميع ويدافع عنه، ألا وهو القانون[147].

---

(147) محمد عابد الجابري، «العقد والعهد والعقد المزدوج،» على الرابط:
<www.mokarabat.com/m423.htm>.

كما أنه العقـد الذي يفرض على الجميـع التواصل والتعاون والتفاهم في مـا بينهم، لغرض تبادل المصالـح، كما تحتّم عليهم ضرورات التعامل اتخاذ لغة مشـتركة قنـاةً للتواصل، وكانت هذه اللغة ولا تزال اللغة العربية لمجموعة من الاعتبارات، نذكر منها:

- أنهـا اللغة التي يعرفها الجميع من ناطقـة عربية وأمازيغية، بعيدًا عن النظرة الشوفينية ومحاولة إنكار الواقع، فهي لغة الأغلبية الساحقة من الساكنة.

- تمتلك اللغة العربية جميـع المؤهلات التي تجعل منها لغة وسيطة، فهي لغة عالمية: يتواصل بها أكثر من 300 مليون عربي.

- إنها لغة العبادة لأكثر من مليار مسلم، وهي لغة رسمية ولغة ثانية في كثير من البلدان والهيئات العالمية، كما أنها إحدى اللغات الست التي تعتمدها الأمم المتحدة.

- لهذه اللغة تراكم حضاري ورصيد فكري يؤهلها لمسـايرة التطورات العلمية الحاصلة، إضافة إلى تميزها بنظام كتابي ألفبائي راقٍ يؤهلها سلفًا لتحويل المعارف والخبرات ونقلها من جيل إلى آخر، إضافة إلى كونه نظام كثير من اللغات غير العربية.

- هي اللغة الوطنية والرسمية في البلدان المغاربية، ما يعني أنه ينبغي ألّا يكون ثمة اختيار بينها وبين لغة أجنبية أخرى.

لذا، فإن العربية هي اللغة الوسـيطة المثلى في بلدان المغرب العربي، ويجـب ألّا يقتصر دورها على أنها لغـة الواجهة المكتفية بأداء الوظائـف الرمزية، بينما الهيمنة الفعليـة لغيرها، ذلك أنّه من

العدالة اللغوية ألّا تهان لغة وطنية ورسمية في عقر دارها.

إضافة إلى ذلك، إذا عمل كل طرف بأخلاقيات الشراكة وشروطها القائمة على الاحترام المتبادل والتسامح والاحتكام إلى القوانين المدنية التي تكفل حقوق المتشاركين، فلا شك في أنّ ذلك سينعكس إيجابًا على التنمية وشروطها، وبناء مجتمع يسوده السلم والتعاون، وهو ما يُعرف بالتنوّع في إطار الوحدة.

كان المجتمع المغاربي عبر عصور التلاقي والتلاقح العربي الأمازيغي متّسمًا بهذه الخصائص؛ قامت فيه دول حكمها أمازيغ، فنشروا العربية وجعلوها لغة مشتركة، وتَسَمَّوا بأسماء عربية، ولم يعانوا أي عقدة نقص تجاهها، بل نبغ فيها العلماء والمفكرون وألّفوا بها، ودوّنوا بخطها ما كتبوه في الأمازيغية.

يمكننا أن نطالع في التاريخ مئات الأسماء اللامعة في شتى العلوم اللغوية والأدبية والفقهية والفلك وغيرها من المعارف؛ «فعلماء البربر الذين ألّفوا بالعربية في مختلف العلوم لا يمكن أن نقارنهم كثرة بأجدادهم الذين ألّفوا بالإغريقية أو اللاتينية»[148]، فنجد منهم الزواوي والشاوي والمغراوي والتازي والمشدالي والجزولي والسوسي واليوسي والبجائي، وهي، كما يرى القارئ، ألقاب أمازيغية نسبة إلى قبيلة أو منطقة أو إلى حوزة علمية ثقافية.

كما أن الأمازيغ اتّخذوا الخط العربي وسيلة لتدوين الأمازيغية

---

(148) أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر** (بيروت: دار الغرب الإسلامي، [1993 - 1996])، ج 4، ص 203.

وكتابتها، وتخلوا عن الخط اللاتيني الذي كان وسيلتهم في الأغلب الأعم، إضافة إلى خط التيفيناغ، فـ «رغم انتشـــار اللغة العربية بين البربر وتقديســـهم لها باعتبارها لغة الدِّين، فإنّ بعضهم قد عبّر عن خواطره أحيانًا بالبربرية، ولكن بحروف عربية، وكان هذا شائعًا بين المتعلمين منهم»[149]، كما أنّهم لم ينظروا إليها نظرة ازدراء.

ونجد أيضًا أن كثيراً من الدراسات تقرّ بالاشتراك في الأرومة الواحدة، مثلما تدل على ذلك الوقائع المشـــاهدة وتثبته الدراسات التاريخية والأنثروبولوجية والإثنولوجيـــة واللغوية[150]. وهذا على العكس ممّا عملت على ترويجه المدرســـة التاريخية الاستعمارية، حيث نُظِر إلى «الوافدين العرب كغزاة مســـتبدين، وليس كفاتحين يحملون مشروعًا من شأنه أن يســـعف البربر والعرب على السواء على توحيد ذاتهم وتجديد استكمال مقوماتهم»[151].

لذلك ينبغي أن يتجاوز الخطاب الأمازيغي بعض الشـــعارات التي لا يزال يرددها بعض متطرفيـــه، وأضحت مفرغة من دلالاتها وشحنتها التحريضية بفعل التقادم وعدم الواقعية وهشاشة حِجِّيتها. فالمفاهيـــم تبدلت، وبات الجميع جيرانًا فـــي وطن واحد. كما أن جميع الشـــرائع الســـماوية والقوانين الوضعية تحث على حســـن

(149) سعد الله، ص 206.

(150) عبد الله العروي، **مجمل تاريـــخ المغرب من الغزو الأيبيري إلى التحرير**، ط 5 (بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1996)، ص 44 وما بعدها.

(151) امحمـــد مالكي، **الحركات الوطنية والاســـتعمار فـــي المغرب العربي**، سلســـلة أطروحات الدكتوراه؛ 20 (بيروت: مركز دراســـات الوحدة العربية، 1994)، ص 48-49.

الجوار وتحرص عليه، إذ إن أساســه التعايش والتسامح والعدالة اللغوية والثقافية.

إن ما يمكن أن نؤكده هنا هو أنّ هذا التحوّل لم يحدث فجأة؛ فـ «... الأســلمة (Islamisation) واعتماد لغة الضــاد أداة للتواصل [...] لم يكــن حدثًا تاريخيًا ســهل الوقوع، وهــي الحقيقة التي أكدتها صعوبة الفتح سياسيًّا وعسكريًّا على امتداد أكثر من خمسين ســنة»[152] ما يعني أن العملية أخذت وقتها وفق سُنَّة التدرج، إلى أن صــارت العربية لغة العلم والمعرفة، بعــد أن كانت لغة العبادة والشــعائر الدينية ولغة القرآن الذي يفرض عليهــم الدِّين الجديد تلاوته، وهو ما حدا بالمؤرخيــن إلى تأكيد أن «البربر الذين تعرّبوا يعدّون أضعافًا مضاعفة من الذين تلتنوا (من اللاتينية)»[153].

عمومًا، لا بــدّ من وجود اســتراتيجيا موحّــدة وواضحة في التعامل مع اللغات الأجنبية وعــدم تغليبها على اللغة العربية، فمن شأن سياسة مثل هذه أن تفتح المجال واسعًا أمام التعليم والباحث العربي للتعرف إلــى الثقافات والعلوم الغربية، وفي الوقت نفســه لا تضيع هويته في زمن العولمة[154]، ولا ينســلخ عن جلدته وأمّته وتاريخه. من ثمّ، يمكن أن تلزم تشــريعات الدول المغاربية جميع مواطني الدولــة بإتقان لغتها التي هي عامل مهمّ لتوحيد الشــعب، وعلى الحكومة وبعض الجهات التنفيذية والمحلية أن تطوّر جميع

(152) مالكي، ص 50.
(153) سعد الله، ج 4، ص 203.
(154) بوزياني، ص 214.

الوســائل للتعريف بها، وتقدم الشــروط التنظيميــة والمواد التقنية لإتقانها، وأن تعلّمها للمواطنين في داخــل الدولة ولأبناء الجوالي في الخارج، وأن تتيح لهم الظــروف لتنمية معارفهم باللغة الوطنية اقتداء بــدول كماليزيا التي تجعل إتقان اللغة الماليزية من شــروط تثبيــت أي موظف ماليــزي[155]، وهذا على العكــس ممّا هو متّبع في بعض الدول المغاربية التي تشــترط معرفة اللغة الفرنسية لتولّي أغلب المناصب. وهنا يطــرح موضوع العدالة اللغوية بحدّة؛ إذ لا شك في أن هذا يُنقص من قيمة اللغة الرسمية أو الوطنية، ويجعلها في مرتبة أدنى من مرتبة اللغة الأجنبية.

إذا نفينا الجانب السياســي، يلاحَظ أن التمــازج بين العرب والأمازيغ ظل على مرّ التاريخ بفضل أخوّة الإسلام، ولم يشعر أحد بالغبن والحيف منذ وطئت أقدام العرب المســلمين شمال أفريقيا، فظلوا يتصاهرون وينكبّون على تعلم اللغــة العربية وخدمتها، ولم يدعوا العرب إلى تعلّم اللغة الأمازيغية فرضًا أو طواعية. ولكن بعد الارتماء في أحضان الفكر الليبرالي الذي يقدس الذاتية والفردانية، بدأت فئــة من الأمازيــغ المتشــبّثين بالفكر الغربــي تطالب بحقّ الأمازيغية وفي الانفصال عن العرب.

إنّ ما نخلــص إليه هو أنّ هذه الشــراكة ممتــدة الجذور في التاريخ، ولن يشــكك فيها إلّا من يريد زرع بذور الشــقاق، وليس للجميع خيار - كمــا كان لهم مــن قبــل - إلّا أن يقبلوا بعضهم

(155) حجازي، ص 64.

بعضًا على أســاس المواطنة الدســتورية؛ فالعصر هو عصر الدولة المتعددة الثقافات، ولا مــكان فيه للقومية الخالصــة النقية، فمثل هذه الطروحــات أضحت متجاوَزة لأن التعدّد بات ســمة جوهرية في الدولــة - الأمّة الحديثة، أساســها التجانــس والوحدة، فهناك دومًا «ســاكنة تنتقــل، ومجموعات تختلط، وأراضٍ تــمّ ضمّها أو التخلّي عنهــا، وعمليات تبادل تجاري ســبق إقامتها، وصيرورات إدماج سياســي تم تحقيقها، وحدود جرى تغييرها»[156]. وليس من العدالــة أن تنعزل الأطراف المتجاورة في غيتوات لســانية، وتغلق باب التواصل؛ فللحياة إكراهاتها التي تفرض على الإنسان، بوصفه كائنًا اجتماعيًّا، التكيف مع المعطيات الجديدة، فهذه أوروبا التي لم يمنعها تنوّعها الفسيفسائي وكثرة محنها وصراعاتها التي لم تتوقف عبر العصور، من التوجّه نحو اتحاد يحترم خصوصيات كل طرف، والانطلاق في تنمية شاملة وبناء حضارة متعدّدة الأبعاد.

لذا، يتعيّن علــى المجتمعات المغاربيــة أن تتجاوز الوضعية اللغوية التي أحدثتها صدمة الاحتلال ومضاعفاتها اللاحقة، وذلك بتبنّي «نظرة تكاملية وظيفية لأبعــاد الهوية، فلا جدوى من تضخيم أجزاء منها على حساب أخرى، وتحويلها إلى أورام خبيثة ونزاعات بلا مخرج»[157].

(156) سافيدان، ص 8.

(157) محمد العربي ولد خليفة، «اللغة والهوية والتعددية اللســانية،» منبر حوار الأفكار، العدد 17 (تشرين الثاني/ نوفمبر 2006)، ص 13.

خاتمة

يجدر بنا في خاتمة هذا الكتاب أن نوجز النتائج والاقتراحات التي نراها كفيلة بالارتقاء بالعدالة اللغوية والممارسة الديمقراطية في مجتمع تعدّدي كالمجتمع المغاربي، ومن ثم يساهم تكريسها أسلوب حياة يُدعِّم لحمة النسيج الاجتماعي ويقوّيها، ويؤدي إلى تماسك بناء الدولة الأمة والانتقال بها من دولة الرعايا إلى دولة المواطنين.

بناء على ذلك، علينا تجاوز مجموعة من المعوّقات المفتعلة، ومنها:

1 - النظرة الماضوية الآسرة لتفكير النخب، خصوصًا ما تعلّق منها بممارسات الماضي القريب، من إقصاء وتهميش، إذ يكفي الاعتراف الدستوري بالأمازيغية الذي يمثّل جبرًا للخاطر وتأكيدًا للمساواة الرمزية بين اللغات الوطنية.

2 - على بعض الداعين إلى الأمازيغية الكفّ عن ممارسة الضغط على الجماعة اللغوية العربية وإشعارها بعقدة الذنب

تجاه الأمازيغيــة، فالصــراع الحقيقي والأصلي ليس بيــن العربية والأمازيغيــة، بل هو بين اللغات الوطنية واللغة الفرنســية المهيمنة الفعلية على ساحة التواصل الرسمي والعلمي.

3 – على الخطاب الأمازيغي أن يتجنّب الاســتفزاز، والعنف اللفظي المؤدّي إلى العنــف المادّي، كما عليــه ألّا يتنكر للقضايا المصيرية للأمّة العربية الإســلامية، كما هو ملاحظ الآن في بعض خطابات نخبه المتطرّفة.

4 – على الخطاب الأمازيغي أن يرقى إلى مســتوى تطلعات الجماعة الأمازيغية عن طريق تقديمه آليــات إجرائية ترتفع باللغة الأمازيغيــة إلى مســتوى اللغات العالميــة، لتصبح قــادرة على تحويل المعرفة ونقل التكنولوجيات، وحتى تتبوّأ مكانتها الطبيعية بوصفها لغة للحياة، خصوصًا أنّ الدول المغاربية أبدت استعدادها والتزامها الأدبي للعمل على تدعيم وتشــجيع كل جهد يصبّ في هذا الاتّجاه.

5 – على النخب الأمازيغيــة فك ارتباطها مع الدوائر الأجنبية التي تؤلّب على أنظمة بلدانها، فذلك يثير حساســية لدى الناطقين بالعربية الذين يرون في ذلك وجهًا من وجوه الاســتعداء والعمالة للأجنبي ضد الوطن.

6 – عدم حصر جميع المشــكلات الاجتماعية في المســألة اللغوية التي ليست إلّا وجهًا من وجوه العدالة الاجتماعية.

7 – المســألة الأمازيغية تخــصّ جميــع المغاربيين من دون

استثناء، شأنها في ذلك شأن العربية والإسلام، بوصف هذا الثالوث هو الذي يكوّن هوية هذه الشـعوب، فهي تعني الجميع، ولا فائدة من المزايدات السياسـوية. ومعلوم أن النصوص القانونية تحرص على منع قيام الأحزاب في هذه البلدان على أسـاس عرقي أو ديني أو لغوي.

8 - على الخطاب الأمازيغي أن يحرص على الوحدة الوطنية في نصوصه، ولا يغفل الانتماء العربي الإسلامي، حتى لا نسمع من فترة إلى أخرى أصواتًا من داخله تدعو إلى الانفصال والاسـتقلال والحكم الذاتي، ما يجعل بقية الساكنة تقف من هذا الخطاب موقفًا حذرًا، وتتوجس منه خيفة.

9 - كما أنّ هذه الدعوات دعوات تضليلية إذا قيست بمقياس العقل والمنطق والواقع، لأنّ المناطق ذات الكثافة الأمازيغية مناطق جبلية معزولة وفقيرة من الناحية الطبيعية، وتعتمد تنميتها على بقية مناطق البلاد المغاربية، أي إنّها حسابيًا مناطق غير مكتفية ذاتيًا، ولا تمتلك مؤهّلات اقتصادية لقيام دول مستقلة، أو ذات حكم ذاتي.

إن مـا تعانيه المناطـق ذات الكثافة الأمازيغيـة من نقص في التنمية على مختلف المستويات هو أمر عام في شتّى مناطق البلدان المغاربية، ولم تكن اللغة في يوم من الأيام عائقًا في وجه الناطقين بالأمازيغية للارتقاء الاجتماعي، بدليل أنّهم يشغلون أعلى المراكز في مؤسّسات الدولة وفي هياكلها، وفي مختلف القطاعات، بل لم يكن أحدهم يُسـأل عن لغته، وبالتالي قد تشـتغل تلك الأصوات بالدعوة إلى ترشـيد النفقات فـي أكثر القطاعـات، وإلى الحكم

الراشد الذي لا ينفصل عن العدالة والمواطنة التامّة، والتمتّع بالحق الدستوري.

10 - الكــف عن رمي العربيــة بإنتاج الإرهـــاب والأصولية الفكرية الدينية، وغرس مجافاتها في نفوس الناشئة الأمازيغية.

أخيراً يمكن أن نقترح في هذا المجال التفكير في كيفية التعايش كما تعايش أجدادنا، وكيف نبــدع في المجالات المعرفية والعلمية والتقنية المختلفة، فضلاً عن كيفيــة إدخال موضوع العدالة اللغوية ضمن المســار البيداغوجي الجامعي في التخصصات العلمية، مثل كليات القانون والإعلام والعلوم السياســية، والدراسات اللسانية، واســتحداث فروع في الهيئات العالمية مثل الأمم المتحدة. وكذا إنشـــاء مجالس عليا للغات لتدبير هذا الشـــأن الحساس، بمعنى أن نجعل من العدالة اللغوية سلوكًا ثقافيًا ممارَسًا باستمرار.

المراجع

1 - العربية

كتب

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد الحليم بن عبد السلام. مجموع فتاوى. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، وابنه محمد. الرياض: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1991.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي. **لسان العرب**. بيروت: دار صادر، [د. ت.].

أهمية التخطيط اللغوي - أهدافه ووظائفه. الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2011.

باري، بريان. **الثقافة والمساواة: نقد مساواتي للتعددية الثقافية**. ترجمة كمال المصري. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2011. (سلسلة عالم المعرفة؛ 383)

بركة، عبد المنعم أحمد. **الإسلام والمساواة بين المسلمين وغير المسلمين في عصور التاريخ الإسلامي وفي العصر الحديث.** الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1990.

بلعيد، صالح. **في المواطنة اللغوية وأشياء أخرى.** الجزائر: دار هومة، 2008.

______ . **المازيغية في خطر.** الجزائر: منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري بتيزي وزو، 2011.

البنا، جمال. **نظرية العدل في الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي.** القاهرة: دار الفكر الإسلامي، [2011].

بينيت، طوني، لورانس غروسبيرغ وميغان موريس. **مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع.** ترجمة سعيد الغانمي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2010.

بوعرفة، عبد القادر. **العدالة والإنسان: أسئلة الواقع ورهانات المستقبل.** الجزائر: منشورات مخبر الأبعاد القيمية في الجزائر؛ دار آل رضوان، [2008].

التومي، محمد. **المجتمع الإنساني في القرآن الكريم.** ط. 2. تونس: الدار التونسية للنشر؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990.

الجابري، محمد عابد. **حفريات في الذاكرة من بعيد.** بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1997.

جونستون، ديفيد. **مختصر تاريخ العدالة**. ترجمة مصطفى ناصر. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2012. (سلسلة عالم المعرفة؛ 387)

رولز، جون. **العدالة كإنصاف: إعادة صياغة**. ترجمة حيدر حاج اسماعيل. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009.

سافيدان، باتريك. **الدولة والتعدد الثقافي**. ترجمة المصطفى حسوني. المغرب: دار توبقال للنشر، 2011.

سعد الله، أبو القاسم. **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**. بيروت: دار الغرب الإسلامي، [1993 - 1996].

السيد حسين، عدنان. **المواطنة في الوطن العربي**. الرباط: منتدى الفكر العربي، 2008.

شاكر، سالم. **الأمازيغيون اليوم**. ترجمة عبد الله زارو. المغرب: مؤسسة تاوالت للثقافة الأمازيغية، [د. ت].

الصافوط، محمد. **المواطنة والوطنية**. المغرب: مطبعة النجاح بالدار البيضاء، 2007.

صبولسكي، برنار. **علم الاجتماع اللغوي**. ترجمة عبد القادر سنقادي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.

الصفار، حسن. **التنوع والتعايش: بحث في تأصيل الوحدة الاجتماعية**. [بيروت: دار الساقي، 1999].

صقر، مصطفى أحمد. **فلسفة العدالة عند الإغريق وأثرها على فقهاء الرومان وفلاسفة الإسلام**. مصر: مكتبة الجلاء الجديدة، 1989.

عثمان، سعدي. **عروبة الجزائر عبر التاريخ**. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982.

العروي، عبد الله. **مجمل تاريخ المغرب من الغزو الأيبيري إلى التحرير**. ط 5. بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1996.

ـــــــــ . **من ديوان السياسة**. بيروت؛ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، [2009].

عفيفي، عبد الفتاح. **علم الاجتماع اللغوي**. الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر، [د. ت].

الفهري، عبد القادر الفاسي. **اللغة والبيئة**. الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2003.

كالفي، لويس جان. **حرب اللغات والسياسات اللغوية**. ترجمة حسن حمزة؛ مراجعة سلام بزي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2008.

ـــــــــ . **علم الاجتماع اللغوي**. ترجمة محمد يحياتن. الجزائر: دار القصبة للنشر، 2006.

كولماس، فلوران. **اللغة والاقتصاد**. ترجمة أحمد عوض؛ مراجعة عبد السلام رضوان. الكويت: المجلس الوطني للفنون والآداب، 2000. (سلسلة عالم المعرفة؛ 263)

كيمليكا، ويل. **أوديسا التعدّدية الثقافية – سبر السياسات الدولية الجديدة في التنوّع**. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2011. (عالم المعرفة؛ 378)

مارسيه، جورج. **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**. ترجمة محمود عبد الصمد هيكل. الإسكندرية: منشأة المعارف، 1991.

مالكي، امحمد. **الحركات الوطنية والاستعمار في المغرب العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1994. (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ 20)

مجيد، حسام الدين علي. **إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر: جدلية الاندماج والتنوع**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010. (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ 85)

المديني، توفيق. **اتحاد المغرب العربي بين الإحياء والتأجيل: دراسة تاريخية سياسية**. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، 2006.

المشروع النهضوي العربي: نداء المستقبل. ط. 2. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011.

مهري، عبد الحميد. **أهمية وضع سياسة وطنية للغات**. الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2007. (سلسلة دفاتر المجلس؛ 26)

دوريات

بلعيد، صالح. «بحث في مصطلح (الممارسات اللغوية) في الجزائر.» مجلة الممارسات اللغوية: العدد التجريبي 0، 2010.

بوزياني، خالد. «استراتيجية التخطيط اللغوي ومشكل التنمية اللغوية في العالم العربي.» مجلة المجمع الجزائري للغة العربية: العدد 8، كانون الأول/ ديسمبر 2009.

التسامح: العدد 9، شتاء 2005.

جحفة، عبد المجيد. «"ندوة" الأبعاد السياسية للإشكالية اللغوية في المنطقة المغاربية.» المستقبل العربي: العدد 253، تموز/ يوليو 2008 .

حجازي، محمود فهمي. «اتجاهات السياسة اللغوية.» مجلة المجمع الجزائري للغة العربية: العدد 8، كانون الأول/ ديسمبر 2008.

حنون، مبارك. «الوضع اللغوي بالمغرب في أفق العولمة: نحو إيكولوجيا لغوية.» مجلة فكر ونقد: العدد 24، كانون الأول/ ديسمبر1999.

خلفي، عبد السلام. «معيرة اللغة الأمازيغية في ضوء بعض التجارب العالمية.» مجلة أسيناك: العدد 3، 2009.

الزبون، فواز عبد الحق. «دور التخطيط اللغوي في خدمة اللغة العربية والنهوض بها.» **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**: تشرين الأول/ نوفمبر 2009.

الزحيلي، وهبة. «مفهوم المواطنة في المنظور الإسلامي.» **مجلة التسامح**: العدد 15، صيف 2006.

سركيس، إحسان. «الدولة-الأمّة.» **مجلة دراسات عربية**: العدد 7، أيار/ مايو 1979.

لبيض، عبد الحق (إعداد وتقديم). «العروبة بعيون أمازيغية: ندوة الأمازيغية هوية ثقافية أم رهان سياسي؟» **مجلة الآداب**: شباط/ فبراير 2005.

مرتاض، عبد الجليل. «التنمية اللغوية، من أين تبدأ؟» **مجلة اللغة العربية**: العدد 9، 2009.

المسدي، عبد السلام. «لغة الطفل العربي والتحدّيات الراهنة.» **مجلة اللغة العربية**: العدد 19، 2008.

ولد خليفة، محمد العربي. «اللغة والهوية والتعددية اللسانية.» **منبر حوار الأفكار**: العدد 17، تشرين الثاني/ نوفمبر 2006.

دراسات

بوعلي، فؤاد. «النقاش اللغوي والتعديل الدستوري في المغرب.» المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات: كانون الثاني/ يناير 2012. (سلسلة دراسات وأوراق بحثية)

تقارير

«الاستثمار في التنوع الثقافي والحوار بين الحضارات.» تقرير اليونسكو العالمي، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، 2009.

2 - الأجنبية

Books

Parijs, Philippe van. *Linguistic Justice for Europe and for the World.* Oxford: Oxford University Press, 2011.

Robert, Paul. *Le Petit Robert.* Rédaction dirigée par Alain Rey et Josette Rey-Debove. Paris: [Le Robert], 1992.

Robichaud, David. *Justice et politiques linguistiques: Pourquoi les laisser-fairistes.* Québec: Presses de l'Université du Québec, 2005.

Sapir, Edward. *Linguistique.* Traduction de Jean-Elie Boltanski et Nicole Soulé-Susbielles; présentation de Jean-Élie Boltanski. Paris: Editions de Minuit, 1968.

Periodicals

Cerquiglini, Bernard. «La Diversité des pratiques linguistiques: Richesse d'un patrimoine national.» *Langues et cité*: no. 1, octobre 2002.

Chaker, Salem. «Les Berbères dans le Maghreb contemporain: Entre tensions et evolutions.» *Afkar/idées*: Hiver 2005.

——. «La Question berbère dans le Maghreb contemporain: Eléments de compréhension et de prospective.» *Diplomatie – Magazine*: no. 3, mai - juin 2003.

Encrevé, Pierre. «De L'observation scientifique à la politique linguistique.» *Langues et cité*: no. 1, observatoire des pratiques linguistiques, 2002.

Parijs, Philippe van. «Plaidoyer pour une territorialité linguistique.» Traduction de l'anglais par Annette Gérard; revue et complétée par l'auteur.» *Politique*: no. 73, janvier- février 2012.

Thompson, John B. «Langage et idéologie.» *Langage et société*: no. 9, mars 1987.

Thesis

Robichaud, David. «Une théorie normative de la diversité linguistique.» (Thèse de doctorat, Université de Montréal, département de philosophie, 2008).

Reports

Starkey, Hugh. «Citoyenneté démocratique, langues, diversité et droits de l'homme: Guide pour l'élaboration des politiques linguistiques éducatives en Europe, de la diversité linguistique à l'éducation plurilingue.» Strasbourg, Conseil de l'Europe, 2002.

فهرس عام

- ب -

- ت -

هذا الكتاب

شغلت مسألة العدالة الفلاسفة والمفكرين والقادة السياسيين والحكماء منذ بداية التاريخ الإنساني. غير أن مفهوم العدالة اللغوية راح يفرض نفسه على التفكير والمفكرين منذ فترة ليست بعيدة، بعد أن تمكّن مفهوم العدالة الثقافية، أي أولوية الحقوق الثقافية، من أن يصبح حقلاً مهمًا من حقول الاجتماع البشري. وبهذا المعنى، فإن فكرة العدالة اللغوية جديدة على الثقافة العربية إلى حد كبير. وهذا الكتاب محاولة لبلورة هذا المفهوم وإدراجه في سياق علم الاجتماع اللغوي، وإظهار تطبيقات العدالة على القضايا اللغوية، الأمر الذي سيؤدي، بالضرورة، إلى تناول مفاهيم مثل الحقوق اللغوية والتسامح اللغوي وغير ذلك من المفاهيم المجاورة. ثم إن غاية هذا الكتاب هي عرض الوضع اللغوي في دولة مثل المغرب في سبيل مقاربة العدالة اللغوية في جذورها ومشكلاتها والحلول الافتراضية لها.

أحمد عزوز: أستاذ التعليم العالي - قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة وهران السانية – الجزائر. حائز دكتوراه دولة في اللسانيات. له العديد من الكتب والمقالات المنشورة في مجال اللغة.

محمد خاين: أستاذ مساعد قسم- أ- بكلية الآداب واللغات جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف – الجزائر. حائز شهادة الماجستير في اللغة العربية – لسانيات. له العديد من المقالات المنشورة.

السعر: 4 دولارات

ISBN 978-9953-0-2905-4

9 789953 029054

المركز العربي